أصداء الذاكرة

سيرة طفولة

طارق لحمادي

أصداء الذاكرة

سيرة طفولة

دار الكتاب المعاصر

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الكتاب: **أصداء الذاكرة**

الكاتب: طارق لحمادي

- الطبعة الأولى-

ردمك: 9789931882305

الإيداع القانوني :أكتوبر 2022

دار الكتاب المعاصر للنشر والتوزيع

دار الكتاب المعاصر

حي 600 مسكن أل.بي.بي، أحمد مدغري
الرويبة- الجزائر
الهاتف:

+213(0) 560439244

+213(0) 560439646

mdl.contemporain@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لدار الكتاب المعاصر

الأفكار الواردة في هذا الكتاب مصدرها المؤلف
ولا تتبناها بالضرورة دار الكتاب المعاصر

الإهداء

إلى طفولة

لم يبق منها غير الصدى . .

الأرض الأولى

تفتّح الوعـي عـلى خـلاءٍ ممتـد خلـف بيوتنـا الطينيـة، عرفـتُ فيـما بعـد أنهـا «بـلاد بوسـتّة» الأرض ذاتهـا التـي شـيّدنا عليهـا ديارنـا الواطئـة القرميديـة ذات الأحـواش المنتهيـة غالبـا بمسـاحات غـير مبنيّـة نبقيهـا عـلى هيئـة حدائـق مسـيّجة. أمـا باقـي الأراضي الشاسـعة التـي تـلي حـدود مسـاكننا، فهـي مـا يكـوّن في النهايـة الحقـول المفتوحـة التـي تنتهـي في الجانـب غـير المـرئي بسـكنات مـلاك الأرض، مسـاحات محرّمـة ممنوعـة وجـب عـدم اختراقهـا لمـا تتوفـر عليـه مـن غـرس وبـذر وغـلال وثمـار.

كان الزجـر والوعيـد هـو وعيّنـا الأول الـذي قابلنـاه بالتـبرّم والعصيـان، إذ يسـتحيل أن تصمـد رغبـة الطفولـة أمـام إغراءات سـهول مديـدة عامـرة بالحيـاة، مليئـة بصـوت الطبيعـة السـاحر، مزدانـة بـكل طيّـب مثمـر، كمهـور برّيـة مندفعـة، اخترقنـا الأسـيّجة كـما اخترقنـا الأوامـر بشـيطنة عاصفـة بـكل رقابـة، وأولهـا رقابـة جـدّي بطولـه الفـارع وعصـاه وصوتـه وحرصـه رغـم خوفنـا مـن سـطوته وسـلطانه وقـد اسـتمدهما مـن مسـاحة غيـاب والـدي.

لم نتأخـر عـن نـداء الطبيعـة، وكشـياطين لا تهـدأ ولا تسـتكين انطلقنـا نعـصي كل أمـر، ونخلـف كل وعـد، ونحنـث أمـام أيّ قسـم، لنعـود مسـاء بأثقـال مـن الخيبـات، وألـوان مـن الخـوف والـتردّد بعـد أن نكـون قـد اقتحمنـا ولعبنـا وسرقنـا.

كنـتُ وإخـوتي في ذلـك الأمـر سـواء، وزدنـا إلى زمرتنـا الأتـراب مـن أبنـاء الجـيران الذيـن ربطتنـا بهـم أواصر صداقـة انصهـرت فيـما بعـد لتشـكّل فرقـة يصعـب ردّهـا أو صدّهـا، في خـلال ذلـك زادت جرعـات الشـيطنة التـي طيّرتنـا مـن حـدود اللعـب واللهـو إلى مهاجمـة مـا يقـع تحـت أيدينـا مـن ثمـار في مسـاحات مفتوحـة مغريـة حيـث تتزيّـن الأرض في الربيـع بألـوان بديعـة مختلفـة مـن أزهـار نجهـل أسـماءها، عـدا شـقائق النعـمان، والتـي كنّـا نعرفهـا باسـم «بوقرعـون» لحاجتنـا إليهـا في صناعـة المـداد، فقـد كنّـا نجمـع أكـبر قـدر مـن وريقاتهـا الحمـراء، ثـم ندقهـا في إنـاء بعـد أن نضيـف إليهـا القليـل مـن المـاء مـع تحريكهـا، لتتحـوّل في النهايـة إلى حـبر نسـتعمله في الكتابـة.

كان ذلـك أقـصى وأبعـد مـا نعـرف مـن الأزهـار أمـا غيرهـا فـلا نحفـظ ولا نعـرف لـه اسـما، إذ يكفـي أن تتـوزّع بألوانهـا المختلفـة بـين الحشـائش الغضّـة الطريّـة في فتنـة وروعـة تـأسر كل حـيّ، لتتحـوّل الأرض سـاعتها إلى مهرجـان بديـع، فالجـراد والنمـل والنحـل والفـراش والعناكـب والجنـادب والخنافـس وكل مـا لا يخطـر عـلى البـال تجـده يـدبّ أو يزحـف أو يطـير باعثـا بهجـة تصنـع الربيـع، وتفتـح رغبـة للهـو والانطـلاق، لكـن تلـك الحيـاة عـلى فيضهـا وطراوتهـا لا تمتـد إلا بالقـدر الـذي يعاجلهـا بالاضمحـلال والذبـول، ثـم الفنـاء، حيـاة

قصيرة سرعان ما تتلوّن بالشحوب في بدايات صيف ترتفع درجة حرارته رويدا رويدا، لتصفرّ الأرض فيه باصفرار عشبها بعد جفاف أوديتها، وكفّ سواقيها، لكنه في النهاية المناخ الذي يطرح النعمة ويُشرع أبواب الرزق، فالحبوب والبقول والخضر والفواكه تنضج كلما تقدم الصيف وأوغلت حرارته في الارتفاع، الأمر الذي يجعل كل لذيذ مثمر هدفا مباشرا لهجماتنا المدروسة التي كثيرا ما نخطّط لها في فترة غياب جدّي، ومن سوء حظنا أنه لا يغيب إلا نادرا، وأوضح ما أذكره له من ذلك الغياب تكليف أحدنا بفكّ رباط الحمار من الحقل وسوقه إلى الإسطبل قبل أن تعلو شمس الظهيرة، ومثل ذلك التكليف إشارة كافية ودلالة واضحة على تسوّقه، وتسوّق جدّي يأخذ أبعادا كثيرة فهو الاستجمام وقضاء الحاجات والمآرب، وهو السفرة التي تتقدم به من القرية الصغيرة المنعزلة المغلقة إلى البلدة الكبيرة الواسعة المفتوحة حيث يقضي السّاعات بعيدا عنا، ما يطمئن قلوبنا الصغيرة بأننا لم نعد تحت رحمة رقابته.

كانت تلكم هي أوقات عصفنا، فتحيّن الفرص تحت شمس ظهيرة لاهبة وغياب عين رقيبة على قيلولة أصحاب الغلال كلها ظروف مواتية لنضرب ضربتنا، ثم نعود بسرعة إلى قلب واد جاف نقتسم فيه ما غنمنا دون أن يجرأ أحدنا على حمل سرقته إلى بيته، إذ كان الخوف من الأهل هو ما يحكم تلك المرحلة من حياتنا رغم غلبة التهوّر على سلوكنا واندفاعنا إلى كل مريب وتعلّقنا بكل طيش.

أمـا أسـوأ مـا قـد نواجهـه بعـد انقضـاء نوبـة السـطو تلـك، فشـكاوى يبثّهـا أصحـاب الغـلال إلى جـدّي، لسـت أدري كيـف تقودهم التحرّيـات إلى كشـفنا، هـل هـي الأدلـة القاطعـة التـي تديـن فعـلا أم مجـرّد التخمـين باعتبارنـا نجـاور أرضهـم؟ مهـما يكـن فأصابـع الاتهـام توّجـه إلينـا نحـن كإخـوة « أولاد ابنـك « هكـذا يقولـون لـه، وجـدّي الـذي لا يكـفّ عـن وعيـده وسـبابه ينقـل الخـبر إلى أمـي التـي تنقلـه بدورهـا إلينـا متسـائلة بحسـن نيّـة عـن حقيقـة السـطو، ونفنـد نحـن الخـبر بأغلـظ الإيمـان، لنبـدأ بدورنـا التفكـير في تقديـم مـبرّرات تبعـد عنـا الشـبهة، مـن دون أن نغفـل مـا سـوف يترتـب عـن وصـول الخـبر إلى والـدي، الـذي لا يتـوانى سـاعتها عـن إجـراء محاكمـة تقـود إلى عقابنـا إن اقتـضى الأمـر.

هكـذا تنقـضي أصيافنـا بـين اللهو والسـطو وأداء بعـض الواجبات التـي تخـص البيـت، فرعـي الحـمار وجلـب المـاء وجمـع الحطـب ورمي القمامـة وقضـاء بعـض الأغـراض مـن دكان الحـيّ مـن الأعـمال التـي نكلّـف بهـا، فنبـلي في ذلـك بـلاء حسـنا إلى أن يطـلّ الخريـف بشـحوبه ونسـماته الهفهافـة وسـحبه البيضـاء الرقيقـة ومطـره الخفيـف الحـاني، فنلبـس إذّاك لبـاس الجـدّ، ونعـزم عزمـة الرجـال، مشرعـين قلوبنـا عـلى مدارسـنا، مخلّفـين وراءنـا نـزق الطفولـة وآثـار فـوضى أقدامنـا عـلى تـراب الوقـت.

خوفٌ وأفراحهم

تُخضّبُ يداي بالحنّاء، وتضرب أمي بالدفّ، يُثارُ في ذلك العالم الذي يشدّني إليه ضجيج لم أعهده قبل اليوم، وجلبة كنتُ أتمنى أن أشترك فيها بلهفة الطفولة المشبوبة، غير أنّ هتاف هاتف أقعدني عن حرّيتي، إحساس مريع بأنّ كل هذا الصخب أقيم لأجلي أنا ابن الرابعة، نبضات قلبي ترافق قرع الدفّ الذي يتأرجح بين يديّ والدتي، فيما تصلني زغردات النسوة كالعواء، أما رقصة جدّي وهو شاهر عصاه فإنها تبعث على الضحك، لكنني لا أضحك.

هناك يربض الخوف لا الفرح، ومن أعينهم قرأت الجريمة سلفا..

***

حين جاء الغد...

وجدتني أمسك الدنانير بيد، والقندورة [1] البيضاء بيد أخرى.

1. لباس تقليدي يلبسه الأطفال أيام الختان

نصف الحكاية

لا أعـرفُ درجـة قرابتهـا منـا، فلـم يكـن السـؤال يعنـي لي الكثـير، طالمـا هـي تـأتي لتمكـث بيننـا أيامـا، فـلا معنـى للسـؤال ولا لجوابـه أيضـا.

إنّ مـا يهـمّ الصغـير مـن هـذا الأمـر، هـو حضورهـا المفعـم بالـسرّ والجاذبيـة، دفقـة تغيـير تحـدث في البيـت الرتيـب الهـادئ، وحجّـة عـلى سـمر لا يملـك والـدي أن يـردّه بسـلطته، سـوف تختفـي أوامـره ونواهيـه ولـو إلى حـين، لتتجـلّى حيـاة جديـدة معجونـة بالظلمة والأشـباح والأرواح والعفاريـت والخيـالات، إنهـا حيـاة أخـرى غـير التـي تعوّدناهـا، قـوى خفيّـة روحانيـة غامضـة تفتـح العـين في ذهـول، وتحفّـز فينـا كل ملكاتنـا، إذ تقطـع بصوتهـا المـزدان بالحـوادث كل نأمـة وكل صـوت فينـا..

وتحدثُ الحلقة..

مـن غـير سـابق إعـداد نتحلّـق، حـين تُرفـع مائـدة العشـاء، ويُنظـفُ الحصـير مـمّا تسـاقط عليـه مـن فتـات، يسـتوي الكانـكي [1]

1. القنديل.

عـلى رفّ خشـبي غـير بعيـد كي يكشـف برعشـة نـوره أكـبر قـدر مـن مسـاحة الغرفـة، نسـتعدّ بـكل مـا فينـا لدخـول حياتنـا الأخـرى، ولفهـم مـا لا نلمسـه ومـا لا نـراه، نخلـع عنـا كل وعـي بواقعنـا، ننـسى أشـياء الغرفـة، عضّـات الـبرد، انهـمار المطـر، وبالـكاد يمـوت المجسـد حولنـا بـكل ثقلـه، لتبـدأ رحلـة مجـردة خفيفـة.. الغـول الـذي يخطـف خراف الراعـي، الجنّـي الأزرق وهـو يحتـال عـلى طفلـة في عمـر الـورد ليـسرق قلبهـا، البقـرة التـي تجـوب أزقـة الـدوّار[1] بجلدهـا المسـلوخ وخوارهـا العـالي، السـتوت أم البهـوت [2]وقـد اتفـق معهـا ولـد السـلطان كي تكيـد للبنـت الغريبـة فتُنزلهـا مـن أعـلى الشـجرة.

بريشـة الخيـال البديـع ترسـم تلـك العـوالم الغريبـة السـاحرة. تتفنّـن في أحاجيهـا الغامضـة الشـيّقة، فتبعـث في فضـاء الحلقـة معنـى السـحر.. ظـلال وأشـكال وشـخوص وأماكـن وروائـح وكائنـات نصادفهـا عـلى وقـع لسـانها لأول مـرة، يتمّلكنـا إحسـاس كامـل بدنيـا غـير هـذه الدنيـا، ونحـن نرقـبُ كل شيء فيهـا، حركـة شـفتيها، هـزّات يديهـا المتسـلحفتين، تقاسـيم وجههـا المغضّـن تحـت آثـار وشـوم قديمـة، طرفة جفنيهـا التـي نحـسّ وكأنهـا تصـل أرواحنـا بأعماقهـا، صوتهـا الـذي لا يسـتقيم عـلى إيقـاع واحـد، إذ يرتفـع ليصـير كـدويّ قذيفـة، ثـم ينخفـض ليسـتحيل همسـا نجهـد السـمع لالتقاطـه، تقشـعرّ أبداننـا، تداهمنـا رعشـة بـين كل حـين وحـين، ونـادرا مـا كان أحدنـا يقاطعهـا مسـتفسرا، بعـد أن يكـون قـد ضيّـع بعـدم تركيـزه حادثـة معيّنـة أو تشـاغل بملاحقـة فكـرة غـير ذات جـدوى، إذ يطلـع صوتـه محرجـا:

1. القرية.
2. واحدة من شخصيات الأحاجي التراثية.

- كيف ذلك جدّة منّوبة؟..

تتنبّه إلى وجودنا، تحملق في وجوهنا المظلّلة بنور الكانكي، وتعود.. ونعود معها في فاصل زمن غير مرئي إلى حدود واقعنا، حيث الأشياء بتجسيدها الكامل، ثم..

ثم نحلّق من جديد على جناحيّ صوتها، ندع الواقع خلفنا، ننسى الأثاث القديم، ضوء الكانكي الواهن، عضّات البرد القاتلة، انهلال المطر في الخارج، صفير الريح العاتي..

تنطفئ المجسدات بكل ثقلها، يغيب كل شيء بموت وعينا بما حولنا، لتشتعل الأخيلة، يُضرم لسانها النار في كل مجرّد فيبعث فيه الحياة، تستحضر الغياب وما وراء الغياب، ونرى بقدرة عجيبة سحرية مدهشة.. فرس ولد السلطان البيضاء وقد كفّت عن الشرب من الترعة، وحمحمت بعد أن علقت بلسانها شعرة طويلة من شعر رأس البنت المتخفّية في أعلى الشجرة..

ويقاطعها أكثر من صوت..

- وكيف عرف ولد السلطان، بأنها شعرة البنت؟

تعدّل من وضع جلستها، ثم تواصل:

- استلّ الشعرة من لسان فرسه، أمر باستحضار كل بنات الدوّار إلى قصره، ثم راح يطابق بين شعورهنّ وتلك الشعرة، فلم يعثر على ضالته، إلى أن اكتشف مرة وبالصدفة صورتها منعكسة على صفحة ماء الترعة، حين رفع رأسه ونظر إلى أعلى شجرة نابتة عند أصل الضفة، كانت هناك، غامضة، مبهمة، ساكنة لا

توحي بأيّ حركة تدل على وجودها، أدرك لحظتها أنها هي، هذا شعرها الطويل الغزير الحريري دليل تهمتها.. قال ساعتئذٍ: «انزلي يا طفلة» كان ولد السلطان يعتقد أنّ أمره لا يُردّ ورغبته لا تُصدّ، وأنّ الدوّار بمن فيه تحت أمره وطوع بنانه، لكن البنت لم تكترث لطلبه ولا أعارته انتباها حتى، ظلّت متشبّثة بأغصان الشجرة، تنظر إلى الأفق السابح في زرقة بلورية..

يقاطعها أحدنا متسائلا:

- هيه، فكيف تصرف معها؟

- أدرك لحظتها أنّ البنت لن تبرح الشجرة، وأنه كي يتمكن منها يجب أن يلجأ إلى الستوت أم البهوت، فهي وحدها القادرة على إغوائها بالنزول..

نستاء ونحن نرى البنت وقد علقت في شرك خديعة الستوت، تأملُ قلوبنا الصغيرة بفارغ الصبر أن لا يحل مكروه بالبنت، وألا تتأذّى من ولد السلطان، وكم تستعجل أرواحنا حلا لهذه المصيبة، لكن ذؤابة الكانكي وهي تغمز موحية بنفاد الغاز، تحرمنا الطمأنينة على مصير البنت، يتراخى الضوء أكثر، فنعجز عن رؤية ما حولنا، وشيئا فشيئا نذوب في الظلام، وعلى صوت والدي الهادئ ونور أصابعنا نرشد أجسامنا الصغيرة المتعبة إلى أفرشتنا، تاركين خلفنا البنت لمصيرها المجهول..

حرفٌ من الماضي

أيـن اختفـت حوريـة، وكيـف تـوارى كل ذلـك الفيـض خلـف حُجـب السـنوات؟ لم يبـق مـن تلـك الحيـاة غـير ظـلال حكايـات ترتقهـا الذاكـرة بعنـاء، ملامـح تطـلّ مـن غـير ترتيـب يتسـلّى الوقـت بعطـب حواراتهـا، فتتبـدى كأضغـاث أحـلام. لكـن الـذي لا يمكـن لي أن أنسـاه في خـلال كل تلـك الفـوضى، هـو صوتهـا:

- طارق..

النـداء المـترع بلمسـة الجـوع وهـي تُركِّـبُ حروفـه مـن كيميـاء حرمانهـا، يسـتيقظ دلالهـا، تفاصيـل جسـدها المدهشـة، النعومـة البكـر المزدانـة بالحاجـة، حـسّ العنـاق الرّقيـق الـذي لا ينتهـي إلى حضـن، صـوت القُبلـة الطريـة الهفهافـة المنطفئـة في الهـواء، هـي ذي الأنثـى بـكل فيضهـا وعطشـها الآثـم، متخفيـة في لفظـة اسـم، لا تكشـف عـن هديرهـا إلا مـن خـلال نـداء بـريّ لا يـكاد يُلفـت السـمع..

كان يكفيهـا اسـمي لـتُرضِي نزوتهـا، إنّ مجـرد لفظـه يشـيع لهفـة في قلبهـا ويـزرع في أعماقهـا حالـة إيمـان بجسـدها وروحهـا، إنهـا مـن

ذلـك الجيـل المـتروك عـلى الهامـش، المنـسيّ عـن فعـل الحيـاة، الواقـف في آخـر الأداء، ولم تكـن تـؤدي الكثـير في حياتهـا بحكـم عيشـة فارغـة لا ثقـل فيهـا، فهـي لم تدخـل مدرسـة ولا عملـت خـارج البيـت، فتـاة عـلى بـاب اللـه، تقـف في سـاحة الحيـاة، مالئـة حضورهـا بمـا تطلقـه مـن إشـعاع روحـاني، ومـا تثـيره مـن فـوضى تقـترب بهـا إلى شـكل المشاكسـات البريئـة المضحكـة.

كانـت تعـرض لاسـمي مـن هـذا البـاب، فهـي تذكـره مـن أجـل الضحـك والتفكّـه والاسـتفزاز، ثـم هـي لا تكتفـي بذلـك في أحيـان أخـرى، فتضيـف إليـه مـا يليـه مـن كلـمات، لتبـدو وكأنهـا تنشـده (طـارق الأحبـاب راح وخـلاّني)، يرافقهـا في ذلـك إيقـاع الـدفّ الـذي لا تـكاد تخلـو منـه جلسـة مـن جلسـاتها مـع أترابهـا.

هكـذا كانـت حلقـات اللعـب، سر اللـذة الموشـاة بـروح الـبراءة، عذريـة قلـوب بيضـاء نقيـة فارغـة، طـيران إلى ذرى الكـمال بـلا أجنحـة، غنـاء ألسـنة متصـل لا تقطعـه سـوى ضحـكات حيّـة، ثـم اسـمي الـذي يقـف كحجـر عـثرة أمامـي إذ يعيـدني إلى أول الشـكّ كلـما خـاب مسـعاي في العـودة إلى البيـت، وهـي تهمـس لأختـي:

- لا عليكِ .. لن يرحل سينتظركِ، وسوف أعيده إلى حلقتنا.

ترفـع عقيرتهـا بالغنـاء مـن جديـد، يرتفـع معـه صـوت الـدفّ متأرجحـا بـين ضربـات يديهـا السريعتـين.

- طارق الأحباب.. راح وخلاّني...

تدوّخنـي الأغنيـة، توقفنـي في منتصـف المسـافة بـين البيـت الـذي كنـتُ أهـدّد أختـي قبـل هنيهـة بالمـضي نحـوه، وبـين لمّتهـن، أتشـظّى بـين رغبتـي في العـودة وحيـدا دون يـد أختـي الكـبرى - التـي وعـدت أن تأخـذ بالهـا منـي - وبـين العـودة إليهـن، إلى حلقتهـن الصغـيرة، إلى المكـوث مـع أختـي حتـى تفـرغ مـن لعبهـا.

كان اسـتفزازها لطفـل لم يهتـك حجـب الجهـل بعـد، ولا أدرك المعنـى الكامـل للحيـاة، ولا وضـع يـده عـلى معرفـة كاملـة لمـا يـدور حولـه، لكنـه كان يـرى، يسـمع، يتكلـم، يمـشي، ويتفاعـل بتلـك المعرفـة الضئيلـة، والأشـعة الخافتـة، والمعـاني الناقصـة، كان غناؤهـا الـذي يمـلأ الدنيـا ويفيـض في الفضـاء، يلجمـه في مكانـه ويُشـعره بكثـير مـن الحـرج والخجـل، ذلـك الخجـل الـذي يشـتعل في بواكـير الفهـم، فيـضيء للصغـير معرفـة الأنثـى في اختلافهـا عنـه كفكـرة غـير مكتملـة اللحمـة، وكحالـة مـن الاسـتهجان والعيـب لصبـي في مثـل عمـره.

يـدرك أنّ حوريـة لم تقصـد ذاتهـا مـن خـلال إيحائهـا، فهـي تكـبره بسـنوات بـل هـي تكـبر أختـه الكـبرى أيضـا، لكنهـا كانـت تقـدم عـلى فعـل ذلـك لنـداءات خفيـة، أصـوات داخليـة مكتملـة الصـدى، قويـة الوقـع، عاليـة الرائحـة كانـت تـزرع فيهـا الإحسـاس بأنوثتهـا، وهـي إذ تطلـق ذلـك الغنـاء، فإنهـا تفعـل كـما يطلـق الحيـوان رائحـة اسـتعداده للسـفاد، ولم يكـن الفضـاء والرمـز غـيره، فهـو الكائـن الذكـري الوحيـد في مـدار حسّـها ووجودهـا، والكائـن الصغـير ربمـا الـذي لا قـدرة لـه عـلى فهـم الرسـالة بثقـل شـيفرتها.

لكنـه بقـدرة مـا، كان يفهـم الرسـالة، ويفـكّ تشـفيرها، يتوقـف مرتبـكا وسـط المسـافة القاتلـة، تتجاذبـه قوتـان عصيتان عـلى التجاهل. قـوة تدعـوه أن يركـب رأسـه ويمـضي عائـدا إلى البيـت، وأخـرى تُبقيـه تحـت وابـل غنائهـا وخـوف تعنيـف والدتـه لـه:

- لِـمَ لَـمْ تعد مع أختك؟..

* * *

يذعــن للغنــاء، بالحــرج يذعــن، بقــوة خفيــة سريــة ســاحرة يذعــن، بالخــوف يذعــن، ويعــود..

يعـود إلى حلقـة لعبهـن، ربمـا كان بعودتـه تلـك، يحـاول أن يطفـئ جمـرة هـذا الغنـاء الـذي يصـدح باسـمه، كأنمـا يعرّيـه ويصلبـه في سـاحة عامـة، تطمـئنُ أختـه إذ يفسـح لهـا بعودتـه مجـالا أوسـع، ومسـاحة أطـول مـن وقـت اللعـب والمـرح مـع صويحباتهـا.

يـدرك كل ذلـك، يعـرف كل صغـيرة وكبـيرة، يشـمّ كل شـاردة وواردة، يلتقـط الصـوت والحركـة والرائحـة والإيمـاءة والمسـاحة والفضـاء، يفهـم كل هـذه الأشـياء وقـد تضمّخـت بـروح معنـى الأغنيـة، وتجلّـت كالنـداء الـذي ينتـصر عـلى مـا دونـه، فيصـير قضـاء وقـدرا يحيطـه مـن كل جانـب، ويسـد عليـه كل منفـذ «طـارق الأحبـاب راح وخـلاّني»

هـي أغنيـة الاسـتفزاز الوحيـدة التـي تتجـلّى كلـما لاح أمامهـا، تسـتفزّ طفولتـه وبراءتـه، تشـعل في مداراتـه هـذا الصـدى الـذي يـتردّد ذبذبـات يلتقطهـا بأذنيـه وعينيـه وقلبـه وروحـه، ويفكّكهـا ويـشرب

منهـا مـرارة المعنـى، لكنـه لسـبب مـا يضيّـع فهـما، ويغفـل مفتاحـا، فيلتبـس عليـه الأمـر.

لسـنوات طويلـة يحيـا ذلـك الخطـأ الصغـير، يحيـاه بـكل مـا فيـه، تشـابه بـين حرفـين لا يـكاد يُـرى، ولا يـكاد يُسـمع، ولا يتجـلّى إلا بالكتابـة، وهـي لا تكتبـه بـل تغنيـه، وهـي حـين تغنيـه يشـاركنها صديقاتهـا ذلـك، وهـن حـين يفعلـن وتتلاقـى أصواتهـن وتتداخـل وتتآلـف، تـذوب الحـروف غنـاء في ضربـات الـدفّ، وهـو لا يتخيّـل أبـدا أنّ الفـاء قـد انقلبـت طـاء، يقينـا لا يعـرف إنْ كـن قـد حرّفـن الأغنيـة باتفاقهـن حتـى تصـير دالـة عليـه، ويصـير اسـمه هـو حقيقتهـا، أم أنهـن غنّينهـا عـلى صحتهـا وأنّ العيـب عيبـه هـو، وأنّ قصـور سـمعه هـو الـذي أربكـه، فقلـب الفـاء طـاء..

***

واليوم ..

«فارق الأحباب وراح وخلاّني »

وهـي اختفـت خلـف حُجـب الأيـام، لم تـترك لـه خيطـا واحـدا يـدل عليهـا، ولا تركـت خلفهـا رائحـة تهـدي قلبـه إلى أثرهـا، لكنهـا تركـت هـذا اللبـس الصغـير، فـارق بـين حرفـين ينـام عـلى خطـأ بـلا يقـين.

المزارة

تناهى إلى سمعي رجع صدى ذكريات من الوادي البعيد، ورأيتُ فيما يرى من يقع بين غفوة وصحوة، شجرة ضخمة الجذع، متشابكة الأغصان، فارعة الطول، أرهفتُ سمعي قليلا لعلّي أنفذ إلى فهم يغنيني عن حيرة قديمة، وتطلّعتُ بقلب عاشق إلى أسرار خفيّة، فلم أر غير البياض الممتد على طول حياة اتسعت بالخذلان والمرارة، تساءلتُ كما يتساءل من يقف على باب الجهل، هل لي بصلة وصل سحرية ممزوجة بلمسة غيب فاتنة، أرى من خلالها ببصيرتي ما أعجز بصري، وأذوقُ من حلاوة شهدها ما يطير بي إلى ذرى الفرح؟..

في لحظات خلوتي تلك، فقه قلبي كل الحكايات الممسوسة بالأسرار، الغارقة في وحيّ غريب، لقد كان ذلك العالم جزءا منا، من حقيقة حياتنا رغم ما فيه من خفايا وماورائيات يعجز المنطق والعقل عن إدراك كنهها أو فهم طبيعتها، كانت حكايات الغول والعفاريت والجنون والصُّلاح تمثّل لونا من الإيمان الذي نحضنه

بقلوبنـا كـما تحضـن الطيـور فراخهـا، بـل إننـا تجاوزنـا فكـرة الإيمـان إلى مسـتوى حيـاة تلـك التفاصيـل بدقائقهـا المثـيرة، وغرائبهـا الفاتنـة، وحالاتهـا الشـاذة..

كانـت الشـجرة المـزارة «البطمـة» تنتصـب بشـموخها وعظمـة جذعهـا فـوق بيـت الطواهريـة، تتـدلّى مـن أغصانهـا المتشـابكة قطـع ملونـة مـن الأقمشـة الغريبـة، حيّرتنـا في أمـر وجودهـا هنـاك وبتلـك الهيئـة، كنـا نهـاب تلـك الشـجرة فـلا نقربهـا في لعبنـا ونزقنـا، وكانـت الوصيـة الوحيـدة التـي نسـمعها عـلى ألسـنة الكبـار: لا تقربوهـا.. وحـين نسـأل عـن السرّ، نلقـى جوابهـم « يسـكنوها الصـلّاح « وتسـاءل بعضنـا بـبراءة، مـن أيـن جـاءوا، ومتـى، وكيـف، ولمـاذا؟ وحـين أعجزنـا الجـواب حملنـا أنفسـنا عـلى الإيمـان بهـم، بقواهـم الخفيّـة ومقدرتهـم العظيمـة عـلى فعـل المعجـزات، حتـى أننـا كنـا نـرد سـقوط صويلـح (وهـو مـن رجـال الطواهريـة) الغريـب والمفاجـئ ورعشـته والمفتـاح الـذي يديرونـه في كفّـه، فيخـرج الزبـد مـن فمـه في لحظـات تبـدو كالاحتضـار، قلـتُ: كنـا نـرد كل ذلـك إلى سـبب واحـد، هـو إثمـه الكبـير الـذي اقترفـه في شـجرة الصـلّاح، نعـم لا سـبب آخـر يجعلـه يسـقط ويتلّـوى كحيّـة مشـدوخة الـرأس بحجـر غـير صنيـع يـده الفاسـد، لقـد عـزم ويـا لهـا مـن عزمـة بـدت كالـشر، قـال: البيـت ضـاق بالأبنـاء، أفكـر في إضافـة غرفـة أخـرى بـأن أحفـر المسـاحة الخلفيـة، وهـي المسـاحة عينهـا التـي تحتلّهـا المـزارة، حـذّروه.. لكنـه أصرّ قائـلا: لـن أقطـع أغصانهـا، ربمـا بعـض عروقهـا إن صـادف وجودهـا في إعاقـة الأساسـات، ووجـد نفسـه يوجعهـا بضربـات فأسـه، وكنـا حـين نخلـد

إلى النـوم ليـلا ويسـود الصمـت، يبلـغ مسـامعنا العويـل، كانـت الريـح تنقـل بـكاء الشـجرة، وكانـت أمـي تقـول هامسـة: أسـمعتم؟ فنهـز رؤوسـنا الصغـيرة علامـة الإيجـاب، نعـم كانـت تبـكي، لقـد أوجعهـا فأوجعتـه، أوجعتـه في مـا عرفنـا عـن سـقطاته التـي لا ينهـض منهـا إلا ورأسـه ووجهـه مضرّجـين بالدمـاء وثيابـه مغـبّرة وشـعره مشـعّثا.

كان الـدرس قاسـيا، والعظـة ماثلـة أمـام أعيننـا، فهـل نملـك أن نجـادل في أمـور هـي أكـبر مـن عقولنـا وأوسـع مـن تجاربنـا وأعقـد مـن فهمنـا؟ اسـتمعنا إلى الكبـار بـكل حـرص، وعقدنـا النيّـة في تعاملنـا مـع الشـجرة ببعـض القداسـة، فكلمـة الصـلاّح تنطـوي عـلى تلـك الأبعـاد النورانيـة المحمولـة عـلى أجنحـة الخـير، فضـلا عـن كونهـا كلمـة هلاميـة، بيضـاء، شـفّافة، مفتوحـة أمـام تشـكيل ريشـة الخيـال الطفـولي الحـالم، وهـي قريبـة بقـدر بعدهـا، مرئيـة بقـدر غيبهـا، ومـع هـذا فقـد بـدت المـزارة بحـزن يغيّـم عـلى فضـاء المـكان الـذي شـغلته، فلـم يصـادف خـلال تلـك الحيـاة أن رأيـتُ اخـضرار أغصانهـا رغـم تقلّـب الأشـجار بتنـاوب الفصـول بـين الخـضرة واليبـاس، لقـد اقتـصرت حياتهـا عـلى فصـل واحـد هـو الخريـف، بـدت شـاحبة، غريبـة، مملـوءة بـأسرار الصمـت، عاريـة مـن الحيـاة، مهجـورة مـن الأنـس، منسـيّة مـن الخـضرة، فقـط هـذه المـزق مـن الأقمشـة المتباينـة الألـوان التـي تتشـبّث بأعوادهـا اليابسـة القاحلـة كـما يتشـبّث الغريـق بقشّـة.

الفخّ

موّهـتُ جلـد الأرض كحربـاء بعـد أن ثبّـتُّ الفـخّ بإحـكام ، ثـم اختبـأتُ خلـف الربـوة.

رأيتــه يحــطّ، ورأيتــه يتنقــل مــن غصــن إلى آخــر، أتــاح لي الخريـف ذلـك بعـد أن عـرّت ريحـه الشـجرة. حـرك رأسـه في اتجاهـات شـتى، بـدا كأنـه يمسـح المـكان بحركـة جسـمه الـذي لا يسـتقر، للحظـة تـبرّز، نظـر نحـو الأفـق، ثـم عـاد يلتقـط بعينيـه الصغيرتـين مـا يقـع أسـفله مـن حركـة، كانـت الأرض هادئـة مديـدة إلا مـن عشـب تهـزّه الريـح، وكان لا يـزال بوقفتـه الحـذرة يتفـرّس المسـاحة التـي أحاطـت الشــجرة، لا شيء غــير الصمــت المســكون بحفيــف أجنحــة بعيــدة وسقسـقات تصلـه متقطّعـة واهنـة، لا يملـك أمـام هـذا الهبـوب غـير التشـبّث بالغصـن العـاري، عينـاه عـلى الأرض حيـث يـذوب الـتراب في لـون واحـد، ثمّـة حـذر لا يكشـف عـن بواعثـه يوحـي بخـوف متصـل يجعلــه يُديــر رأســه بحركــة كاشــفة سرعــان مــا يعيــده إلى الأرض الواقعـة تحتـه مبـاشرة، هنـاك حيـث يمعـن النظـر، كأنـه رأى شـيئا

فيـه خفقـة مـن حيـاة يتلـوّى، كـوّر جسـمه مندفعـا بقفـزة إلى غصـن أدنى، غصـن أقـرب إلى الأرض، شقشـق، حـرك رأسـه في وجـل، في قلـق، في جـوع، في فـرح، بـدا الـشيء الحـيّ أقـرب، تجـلّى وهـو يتلـوّى، يعانـد قيـدا ويصـارع مصـيرا وينتظـر قـدرا..

لم يـرني، ولا تنبّـه إلى وجـودي، فقـد كفتنـي الربـوة شرّ هروبـه، كاشـفة إيّـاه بمـا يمكننـي مـن مراقبتـه..

هل يقع؟!

أطلقـت قـوة البـصر بعـد أن حبسـت نفَـسي، عـصرت قطعـة رغيـف بـين أصابعـي، مسـحت المـكان بنظـراتي خوفـا مـن عـين دخيـل أو مـرور غريـب قـد يفسـد صيـدي، لا شيء، فالمـكان آمـن ليـس فيـه سـواي، وزاد الصمـت فجلّـل هـذه العزلـة التـي فتحتنـي عـلى أمـل أن يقـع...

انتظرته طويلا..

وانتظر أن يصيب غنيمته دون خسارة.

هبّـت ريـح بـاردة شـعثّت ريشـه ورنّحـت جسـمه الهزيـل، قاومهـا بقبضـة مخالبـه عـلى الغصـن منتظـرا الهـدوء، متحيّنـا الفرصـة، هـدأ كل شيء، عـاد الأمـان يغسـل المـكان مـا حملـه عـلى النـزول بقفـزة أخـرى إلى غصـن أدنى.

رأيت في عينيه برد الخريف وجوعه.

ورأيت فرحا غير مكتمل.

ورأى دودة تتلوّى.

ومـن خوفـه عـلى نفـاد الوقـت وضيـاع الغنيمـة، ثمـل بالإقـدام، واندفـع بالجنـون والطيـش، ولامـس بتهـوّره الأرض، وقـف غـير هيّـاب يحنـي رأسـه الصغـير، ويـدكّ بمنقـاره المدبّـب صمتـا كان قـد طـال، فينـشر في الفضـاء صـدى النهايـة.

الخروج من الجنة

قـادني في الـرواق الطويـل، لبسـت أبهـى مـا ادّخرتـه والـدتي لمثـل ذلـك اليـوم، سروال تيرغـال عـلى كنـزة نصـف كـمّ بيضـاء وحـذاء أسـود.

مـدّ يـده الكبـيرة، فتعلّقـت بهـا حتـى لا أضيّـع طريقـي، مشـيت أقلّـب البـصر بـين جـدران عاليـة بـدت كالسـجن. تأملـت حيـاتي الجديـدة بـكل نظامهـا الدقيـق، بمحـاذاة هـذا الـرواق سـاحة فسـيحة تتوسّـط الأقسـام المتناثـرة عـلى طـول مسـاحتها الدائريـة، هنـاك في النهايـة تلـوح مكاتـب الإدارة، خمّنـت ذلـك مـن صغـر حجـم أبوابهـا المتقاربـة، وقطعـت شـكّي باليقـين حالمـا وصلناهـا.. هنـا رأس مدرسـتي، المديـر وكل مـن لـه صلـة بالقيـادة مـن موظفـات السـكرتاريه، هـبّ الحـارس واقفـا عـن كـرسيّ خشـبيّ متهالـك قديـم، وبادرنـا بمـا يشـبه الأمـر:

- انتظرا هنا حتى يأذن لكما بالدخول.

جلـتُ ببـصري في المـكان، متسـائلا في سرّي.. إلى كـم مـن العمـر سـأبقى في هـذا السـجن الكبـير؟!

اكتسـحني شـعور بالخـوف والمـرارة ونحـن في الانتظـار، الرتابـة والصمـت الطويـل القـاسي، ودنيـا مـن الحرّيـة تركتهـا خلـف هـذه الأبـواب.

قابلنـا المديـر الـذي أرشـدنا إلى الحجـرة رقـم ثلاثـة، فأقبلـتُ عـلى صفّـي بـروح فاتـرة وقلـب مضطـرب، جلسـت شـارد الذهـن، خائـر العزيمـة، تتجاذبنـي خيـالات الحرّيـة البعيـدة وأحـلام فـوضى خلـف الأسـوار، تهـت في زحـام الهواجـس، شربـت مـن ينابيـع الحيـاة الأولى بـكل انطلاقهـا وعنفوانهـا، مشـيت مسـافاتي البعيـدة في برّيـة تقـع خلـف بيتنـا مبـاشرة، رفعـت عقـيرتي بغنـاء حلّـو كأنـه السـكّر، تمـدّدت عـلى العشـب مواجهـا السـماء بزرقتهـا الآسرة، نصبـت فخاخـا لطيـور الـدوريّ الحائمـة، ولم أدع فرصـة لجـدران المدرسـة بسـلطتها القاسـية، ولا للمعلـم بأوامـره ونواهيـه أن يحـولا بينـي وبـين حيـاة خيـالي الجامـح.

لكـن واقعـي كان أكـبر مـن كل هروب، وأوسـع مـن أن أتجاهله، وأعمـق أثـرا في مـا سـيأتي مـن حيـاتي القادمـة، فصدعـت للحقائـق، وانصعـت للأوامـر، وفي قلبـي حنينـي إلى الأصـل، إلى تلـك الجنّـة الأولى التـي قايضناهـا بالمعرفـة.

النسيان

أمـشي غـير حافـل بالنـاس ولا بالأبنيـة ولا بالسـيارات التـي راحـت تنهـب الطريـق، عـلى الرصيـف أخطـو، مؤرجحـا محفظتـي الجلديـة في يـدي، فتصطـدم بركبتـي التـي تتعمّـد دفعهـا بقـوة تـواتي طفـلا في عمـر الثامنـة.

بالنسـبة لي الشـوارع طريـق واحـد يختـزل فـرح الوصـول إلى البيـت بعـد عنـاء الـدرس، لا منعرجـات في أفـق المعرفـة، ولا وقفـات تتيـح لي مراجعـة مـا نهبتـه رجـلاي مـن طريـق ومـا تبقـى لي مـن مسـافة.

الحوانيـت والمقاهـي واحـد، والإنسـان إذ يتصـابى أو يشـيخ، يذُكّـر أو يؤنّـث، يـثرى أو يفقـر، يسـمو أو يسـفل هـو واحـد عنـدي.

أمـشي غـير حافـل بالأشـياء حـولي، لا المعرفـة تفسـد صفـاء نفـسي، ولا الحـدود تكـدّر حرّيتـي، أحسّـني كنـورس في سـماء اللـه الفسـيحة حيـث تنطفـئ العلامـات وتخفـت الإشـارات ويمـوت كل مـا مـن شـأنه أن يعطّـل أو يعرقـل سـعيي..

أمـشي مدفوعـا بحنـين الأصـل إلى روح غيبيّـة نحـو مـكان لا ينكشـف إلا لبصـيرتي، هـي طريـق واحـدة لا غيرهـا..

- طارق..

ينتشـلني النـداء مـن ملكـوت علـويّ، أبطـئ الخطـو، وأرنـو متطلعـا إلى مصـدر الصـوت، يسـألني جـدّي وقـد هـبّ واقفـا حتـى يمكّننـي مـن رؤيتـه وسـط رواد المقهـى:

- إلى أين؟!

يدهسـني الصمـت فـلا أجيـب، أقـتربُ بخطـى وئيـدة مـتردّدة، يمسـك بيـدي ويحنـي جذعـه إلى المسـتوى الـذي يواجهنـي فيـه، ويـردف:

- أين كنتَ متجها؟..

- إلى البيت ..

لم تكـن تلـك طريـق البيـت، فقـد وجـب أن أنعطـف شـمالا وأواصـل سـيري إلى أن أبلـغ مربـط حـماره فأنتظـره هنـاك.

يربّـت عـلى كتفـي ونمـشي فيـما عصـاه تقـرع الأرض، ننتهـي إلى الحـمار وهـو يؤرجـح ذيلـه مبعـدا عنـه ذبـاب الخريـف.

***

نمـشي غـير حافلـين بالنـاس ولا بالحقـول، تشـدّ يـدي عـلى اللجام خوفـا مـن السـقوط، وتصـكّ حوافـر الحـمار الطريـق فتقطـع مـا بيننـا مـن صمـت، يسـيل صوتـه في أذني رقراقـا مؤنبـا في حنـو:

- بالله عليك.. لا تنس الطريق ثانية يا بنيّ..

الكانكي[1]

لمحتـه بـين أثاثنـا القديـم، لم يغـيّره الزمـن، ولم يصـب مـن لونـه شـيئا، عـدا قطعـة الفتيـل التـي اختفـت منـه تمامـا.

رأيتنـي وإخـوتي فراشـات هائمـة حـول وهـن نـوره، نقلّـب الأبصـار بـين شـعاع متسـاقط مـن قلبـه وصفحـات كتبنـا.

يمتـد الوقـت فتحـين منـي نظـرة نحـو الجـدران العاريـة، وقـد ارتسـمت عليهـا خيـالات أثـاث رخيـص وظـلال رؤوسـنا، أتململ في جلسـتي المتعبـة، جيـوش مـن الـرؤى تعـبر رأسي، السـاعد الغـضّ الصغـير يضغـط بـكل ثقلـه عـلى حصـير الحلفـاء، آثـار الحـبر عـلى أناملي، الأحـرف المتقافـزة عـلى فضـاء الأوراق مـن أثـر اهتـزاز الشـعلة عـلى رأس الفتيـل، لسـعات الـبرد التـي تعـضّ كل شيء في الغرفـة الصغـيرة، التثـاؤب المتكلّـف الـذي يُفتَضَـحُ أمـره بعـين العـارف، وصوتـه الجهـوري الرزيـن:

---

١. الكانكي: القنديل

- لا.. ليس بعد..

الغـاز لا ينضـب، ولـو فعلهـا لكنـت أسـعد النـاس عـلى وجـه الأرض وأنـا أنسـحب إلى دفء الفـراش الوثـير، لأغفـو بعـين قريـرة.

لكن الشعلة تتألق برغم حصار العتمة.

أغـيّر وضعيـة جلسـتي هربـا مـن ضجـر غـير مـرئي، محـاولا لفـت نظـره إلى التعـب الـذي أخـذ منـي كل مأخـذ، غـير أنّ عينيـه تتجاهـلاني، أعـود إلى الـدرس بـروح اعتراهـا الفتـور واليـأس مقلبـا صفحـات كتـابي دون اهتـمام.

* * *

أتفحّصـه باهتـمام بالـغ، فعـدا قطعـة الفتيـل التـي اختفـت منـه تمامـا، لم يقـدّر للزمـن أن يصيـب مـن لونـه شـيئا، وأنـا ألمحـه بـين أثاثنـا الجديـد.

حديث الخوف

قـرب عمـود السـياج وقـف، رمـق الحقـل بنظـرات قلقـة متوعـدة، تراجـع إلى الـوراء، غمغـم، شـدّت يـده عـلى عصـاه، بـدت عروقهـا الضخمـة النافـرة كأنهـا أوتـار قيثـارة. كنـت أتابـع المنظـر بأنـاة وحـذر، وقـد فـترت يـدي عـن اللعبـة فسـقطت عـلى الأرض.. قـال:

- من دخل الحديقة ؟..

- لست أدري جدّي.

- سعيد.. أعرفه لا أحد يفعلها غيره.

داريت رجفة هزّت جسدي الصغير:

- لعله هو، ولعلّه...

- من تخمّن؟..

- لعله كلب الجيران.

- لكنها آثار أقدام آدمية..

- لست أدري.

كتـم غيظـه في صـدره، مـضى وعصـاه تقـرع الأرض التربـة، فتتصاعـد دقاتهـا كأنهـا الوعيـد، بينـي وبـين نفـسي كنـت أتصـوّر العقـاب الـذي سـيلحقه بشـقيقي.

عطر البدايات

كانـت لمسـة الوعـي الأولى التـي تتحـدّ بذاكـرتي مطلّـة مـن وراء ركام السـنوات، صورتـه وهـو يجلسـني مواجهـا لـه عـلى السريـر الحديـدي القديـم، والعصـا تتأرجـح في يـده، يسـوق لي أولى حـروف الأبجديـة في كتـاب الحيـاة.

كانـت أخطـاء البدايـات كثـيرة، لكـن صفحـه تجـاوز إخفاقـاتي، كثـيرا مـا جمـح بي الخيـال وأنـا في حضرتـه، فـما كان منـه إلا أن أعـادني إلى حـالات الوعـي بصوتـه الهـادئ الرزيـن:

- انتبه ..

يقطع شرودي، ألتحم بحضوره وبما بين أيدينا من أحرف.

يمـضي الوقـت ثقيـلا متقلّبـا بـين المعلـوم والمجهـول، نمثـل طـرفيّ الحيـاة بـكل دفئهـا وحضورهـا، يأخـذ قسـطا مـن الراحـة، بعـد أن يكـون قـد انسـحب بهـدوء مـن جلسـة السريـر ويهمـس:

-حالما أعود، تكون قد استوعبت الدرس.

أعـدُ دون أن أبـرّ بوعـدي، أركـب حصـان خيالي أو أنـزل إلى أرض الغرفـة خلسـة، أفتّـش عـن حالـة تغيـير لا أكـثر، أحـسّ بعودتـه وهـو يقـرع أرض الحـوش، فأقفـز بخفّـة وهلـع فـأر، أقرفـص عـلى السريـر محدقـا في كتـابي بهـدوء لا انفعـال فيـه، يعيـد ترتيـب فهمـي، يفتحنـي عـلى حـبّ الـدرس والإيمـان بقيمـة أن نتعلّـم، وأن تكـون المعرفـة ثمـرة فـرق بيننـا ككائنـات حُمِّلـت الأمانـة وبـين كائنـات اللـه الأخـرى.

ألاحـق عصـاه بعينـيّ، وأرى في شـجرة الـدردار العجـوز التـي تواجـه بـاب بيتنـا القديـم، والتـي كان يتخـذ مـن فـروع أغصانهـا الصغـيرة المديـدة عـصي حضـور بيننـا «صـور ة الشـجرة الأم التـي أنزلـت سـيّدنا آدم عليـه السـلام إلى الأرض»:

- هات يدكَ..

أبسـط كفّـي مقتنعـا بالخطـأ، لكـن لفيـض الأبـوّة الغامـر وحنانـه سـلطان ينجينـي مـن عقـاب، وأسـمع للعقـل حضـورا وهـو يقـول:

- حاول أن تتهجّى الأحرف، وأن تحفظ ما تتهجّاه.

أومئ بنظرتي إقرارا بالخيبة والخطأ، وأنا أهمس له بصمت:

- سأحاول.

في انتظاره

أنتظـره تحـت شرفـة بقالـة اتقـاء مـن المطـر، يـأذن النهـار برحيلـه فيـما يمـارس حضـور ضـوء لمبـات الشـارع والسـيارات رجفـة تهـزّ القلـب الصغـير، إذ يكتسـحني شـعور بـأنّ الليـل قـد جـنّ، أردّد في سري:

- ماذا لو لم يأت؟

الطريـق إلى بيتنـا طويلـة، تخترقهـا مقـبرة، أمـا أضـواء الأعمـدة الكهربائيـة فـلا تغطّـي إلا جزءهـا اليسـير الذي يتصـل بالفيـلاج vilage.

كانـت المحفظـة تتأرجـح في يـدي الصغـيرة، وأنـا أتطلّـع بقلـب خائـف إلى كل سـيارة تبطـئ سرعتهـا أو تتوقـف.

يتحـرّش المطـر بـالأرض، أتابـع زخّاتـه وهـي تختلـط بشـعاع الضـوء، يمتـد الوقـت طويـلا، يمزّقنـي إحسـاس قاتـل بعـدم قـدرتي وفشـلي في مواجهـة الوقـت وهـو يتـسرّب دون أن أظفـر بوجهـه، تراوغنـي الخواطـر والهواجـس بحـالات مـن الـشرود..

- لا تقلق سيجيء.

ينتشـلني الصـوت مـن فـوضى أحاسـيسي، فأهـز رأسي بيـأس، وأسـأله:

- كم الساعة عمو؟..

- السابعة والربع.

تنـداح في القلـب وسـاوس، وتترامـى أمـام بصـيرتي أجيـال مـن الـرؤى، تحضننـي خواطـر البحـث والسـؤال عنـي مـن طـرف إخـوتي، أؤكـد ذلـك لنفـسي بمـا لا يدعـو للشـك، إنهـم عـلى يقـين تـام مـن أنـه ليـس بقـدرتي أن أصـل البيـت وحيـدا في قلـب ظـلام حالـك ومطـر منهمـر ومقـبرة تحتضـن طريقـي في جوفهـا، لترجمنـي بأشـكال وأطياف مـن الأشـباح.

أتسـمّر في مـكاني، تهـزّ بـدني قشـعريرة، وصاحـب البقالـة يهـمّ بإغـلاق بـاب محلّـه، ويطمـئن:

- لا تقلق، لعله ظرف طارئ هذا الذي أخّره.

- لكن الليل، لكنه...

- هل أمرك بانتظاره؟

- نعم.. قال لي انتظرني ريثما أجيء.

- لا تقلق، مادام قد أمرك بانتظاره فسوف يجيء حتما.

يؤرجحنـي البقّـال في نغـمات كلماتـه، ويمـضي تحـت وابـل المطـر، كـما تؤرجحنـي الآمـال في انتظـار والـدي الـذي أبطـأ عـلى غـير

عادتـه، تتيبّـس يـديّ مـن بـرد قـارس عصـف بهـما، فاسـتنجد بجيـوب معطفـي تـاركا المحفظـة لصفعـات الريـح والمطـر، أشرد بخيـالي في دنيـا الخـوف والمصـير المجهـول، فيـما عينـاي تتربّصـان بأضـواء السـيارات والسـابلة، أحـسّ وكأن الهـدوء يقبـل بجرعاتـه الزائـدة، فيقتـل عصافـير الآمـال في مجيئـه.

يتملّكنـي اليـأس، أراوح في مـكاني بعصبيـة، ثـم أبـرح شرفـة البقالـة ملاحقـا أضـواء السـيارات غـير عابـئ بالمطـر ولا بمحفظتـي التـي تركتهـا هنـاك..

* * *

مـن هنـاك، مـن مـكان مـا، مازلـت لم أحـدّد نقطتـه حتـى اليـوم، يجيئنـي صوتـه مبـددا نـار حرقتـي، مداويـا جـراح انتظـاري :

- تأخرّت عليك كثيرا يا ابن الكلب ؟..

أتلعثـم مـن فـرح عـودة الـروح، أقبّلـه بشـغف الوجـود، وأهـرع إلى محفظتـي ناسـيا بـرد الشـتاء ومطـره، ولسـاني يسـيل بكلمـة وحيدة:

- كنت في انتظارك أبي.

المقبرة

بـدأ الخـوف منهـا، وارتبـط بتاريـخ مـن الأجيـال والحكايـات، كأنهـا العقبـة الـكأداء التـي تُعيـد العابـر منهـا إلى نفسـه كـما تـردّ الحـيّ إلى موتـه، سـاكنة إلا مـن زقزقـة طيـور دوريّ، لا سـور أو سـياج يحميهـا، لكنهـا تتمتـع بسـطوة خفيّـة تبعـد شرّ الدخيـل وتـردّ يـد المفسـد، تواتـرت عنهـا روايـات كثـيرة، فكُـذِّبَ بعضهـا وصُـدِّقَ بعضهـا الآخـر، لم نشـهد لهـا مـن الرعـب إلا مـا تناقلـه الـرواة دون سـند يُذكـر، مفتوحـة عـلى خـضرة تشـحب بمجـرّد هبـوب الصيـف، أرضهـا غـير مسـتوية، وقبورهـا غـير متجانسـة، خبرتهـا بالمـشي كـما آنسـتُ جوهـا الهـادئ مـن عـلى ظهـر حـمار كان يسـتغلّه جـدّي في تنقّلنـا عـبر طريقهـا الضيّقـة الخاليـة القفـر المظلّلـة بأشـجار الزيتـون والصفصـاف وأدغـال العلّيـق، في المجمـل فـإنّ تلـك الطريـق لم تكـن سـوى فرجـة بـين الأشـجار والقبـور تضـمّ الداخـل إليهـا في صمـت، ثـم تلقـي بـه في الطـرف الآخـر عـلى طريـق سـيارات إسـفلتية كنـا نطلـق عليهـا اسـم طريـق فرنسـيس، ومـا أكـثر مـا غمرتنـي سـعادة

النجـاة عـلى تلـك الطريـق بعـد أن أكـون قـد قطعـتُ فُرجـة المقـبرة مشـيا مـع خيـالاتي، والمحفظـة تتأرجـح في يـدي، وعينـاي عـلى مـا انكشـف لي مـن مسـاحات خـضراء، أشـجار وحشـائش وشـواهد قبـور، بعضهـا بُنـي بالطـوب والآجـر وسُـيِّجَ بالحديـد، وبعضهـا الآخـر بقـي كـما هـو ربى ترابيـة تشـير إليهـا شـواهد خشـبية متآكلـة، مـن هنـا بـدأت أميّـز الفـوارق الاجتماعيـة بـين النـاس، كانـت القبـور مفتـاح فهمـي الأول لذلـك التراتـب الغريـب الـذي يُمنـى بـه الإنسـان في موتـه كـما في حياتـه، هنـا، قلـتُ لنفـسي: تلمـح ذلـك البـون الشاسـع بـين الأغنيـاء والفقـراء، بـين ميّـت ملـك وسـاد وعـاش وآخـر فَقَـدَ وأُرتهـن وعـانى، مـن خـلال القـبر وصنعتـه تستكشـف حـال الميّـت، وتلقـي نظـرة خاطفـة عـلى شريـط حياتـه، مـن مسـاحة الـتراب الصغـيرة تلـك، تنفـذ إلى فهـم البطـر والاختيـال مقابـل القناعـة والعـوز، وتصـل رغـد عيـش هـذا بشـظف ذاك، كـما تتهجّـى أولى الحـروف والأرقـام، أسـماء وتواريـخ ميـلاد ومـوت، تتفـاوت في كتابتهـا بـين حرفيـة ماهـرة وركاكـة واضحـة عـلى قطـع رخاميـة تُسـند إلى جـدران قبـور واطئـة، وحيـوات هاجعـة تطـل مـن وراء تاريـخ مـوت عطّـل كل شيء، رحلـة ممهـورة بالصمـت والهـدوء والدعـة، وأغصـان أشـجار تتنـاوح في الأعـلى بفعـل الريـح عـلى زقزقـات أسراب دوريّ تغـدو خماصـا وتعـود بطانـا.

مـا أقـصر حيـاة كائـن يختزلهـا التاريـخ، رحلـة صخـب تفـيء إلى كُـدس مـن تـراب، وشـاهد قـبر يُخـبر عـن حيـاة مضـت وانقضـت مـن دون رجعـة.

هنـا، كنـتُ ألاقيهـم، في ذاكـرتي، في صداهـا الـذي يتربّـص بي كـما يتربّـص الظّـل بالجسـم، ملامـح مـن مـاض تطـل بأحـداث هـادرة، يـتراءى لي سـاعتها «القـبر الأبيـض» مـن وراء الحُجـب، تنكشـف تفاصيل عـالم شـفّاف قـدسيّ يمتـزج بشـذا بخـور عـلى أطيـاف مـسرّات روحيـة، فيبـدو كضريـح وليّ صالـح، إلا أننـا لم نعـرف فيـما أذكـر مـن كان صاحبـه، وكيـف دُفِـنَ في ذلـك الموضـع بالـذات؟ لم يكـن السـؤال ليغني عـن حالـة تعايـش نبتـت واسـتقرت جذورهـا عميقـا في النفـس، ونحـن نغـدو ونـروح إلى جـوار القـبر الـذي لم ينسـجم في بنائـه مـع بقيـة القبـور، فقـد بـدا بصـورة غريبـة، جسـم مرتفـع مـن الطـوب ينتهـي بارتفـاع واطـئ، فيـما يتشـكّل رأسـه عـلى هيئـة نافـذة مجوّفـة، تُوقـد فيهـا الشـموع، وتصـفّ عـلى أرضيتهـا آنيـة طينيـة صغـيرة الأحجـام، مـا جعلـه ينـال مـن الحظـوة والاهتـمام مـا لا يخطـر عـلى بـال، فـكان أن تعلّقـت بـه قلـوب العابريـن، أودعـوه آمالهـم، وأطلعـوه عـلى أحلامهـم، في وشوشـة بـدت كالهمـس، وأضحـى التـضرّع هـو صـوت الحـضرة الـذي لا صـوت غـيره، لم يفـوّت المـار منّـا فرصـة تقبيلـه، كان أكثرنـا ينحنـي فيلثـم حجـره أمـا قلّتنـا فيكتفـي بتقبيـل أصابعـه بعـد أن يلامـس القـبر كإشـارة عـلى الفعـل، ولقـد كنـتُ عزوفـا عـن الأمـر، متبرمـا مـن فعـل مجّتـه نفـسي وعافـه قلبـي حتـى قـال لي نـاصر يومـا: كل علاماتـك ضعيفـة في الامتحانـات بسـبب هـذا، وأشـار إلى القـبر، وخمّنـتُ برهـة في قولـه متسـائلا مـع نفـسي.. أيكـون الأمـر كذلـك فعـلا؟ هـل احتقـاري لفكـرة تقبيـل القـبر لهـا علاقـة بمـا يحـدث معـي؟ وقبـل أن أعـود إليـه عاجلنـي بالقـول مـرة أخـرى: جـرّب أن تفعـل حين

نمـر عليـه، لـن تخـسر شـيئا.. أومـأت بـرأسي علامـة الرضـا، كأني أقـول لـه سـوف أجـرّب الأمـر حتـى تسـتقيم أمـور الـدرس معـي.

ولم أفعـل، ردّني هاتـف في أعماقـي عـن فعـل ذلـك، وجدتنـي أتحـدّى خضوعهـم وانكسـارهم، ليكـن مـا يكـون قلـتُ في نفـسي، مـا عـسى أن يفعـل ميّـت لي أنـا الحـيّ؟ غـير أني وفي أعمـق أعماقـي كنـتُ أدرك سـعة خـوفي ومـدى رهبتـي مـن فكـرة المـوت، وشـدّة هلعـي وخشـيتي المتعاظمـة مـن رمزيـة فنـاء ينتهـي إليـه الكائـن، لقد أحجمـتُ عـن تقبيـل حجـر القـبر لا كفـرا بقدرتـه الخارقـة بـل لأني أبغضـتُ كل مـا مسّـته رائحـة الانقضـاء والـزوال.

ورغـم أُلفتـي للمقـبرة كأرض حيّـة تخفـي المـوت في جوفهـا، فقد بقيـت عـلى توجّـسي وحـذري مـن علامـات ورمـوز تصلنـي بالمـوت في تفاصيـل حياتيـة بسـيطة لا تـكاد تكشـف عـن أسرارهـا، ومـن ضمـن مـا عانيتـه زيـارات نسـوة لأمواتهـن في أول صبـاح بعـد يـوم الدفـن مبـاشرة، إذ كنـتُ أتقاطـع معهـن في ذهـابي إلى المدرسـة، كـنّ بهيئـة طائـر الأبلـق مـلاءات سـوداء عـلى براقـع بيضـاء، ومـا أكاد أظهـر لهـنّ حتـى يهرولـن نحـوي، يدفعـن أيديهـن إلى قُفـف مـن خـوص، يخرجـن منهـا حفنـة تمـر وقطعـة خبـز يتصدّقـن بهـا عـلى روح فقيدهـن، لا أذكـر أنّي أكلـتُ شـيئا مـمّا كـنّ يجـدن بـه عـليّ، فقـد كنـتُ أتظاهـر أمامهـنّ باهتمامـي بمـا يقدّمنـه لي، ثـم سرعـان مـا يغيّبنـي منعطـف الطريـق فألقـي الأعطيـة في دغـل علّيـق وأواصـل سـيري..

صالح الدرويش

عشـنا عـلى مقربـة مـن واد تتنـاوب عـلى مياهـه عائلتـا السـوايس وبـن الغنـاي، يجـري شـتاء بغـير ضابـط أمـا صيفـا فتُحـدّد نوبـات اسـتغلاله أيـام الآحـاد صباحـا والأربعـاء ليـلا، مـن مـاء ذلـك الـوادي غسـلنا ثيابنـا ونظّفنـا بيوتنـا وسـقينا دوابنـا وأشـجارنا ودوالينـا، أمـا مشربنـا فـكان مـن ترعـة الـدراوش، بسـطة مائيـة تنتصـب وسـط أحـراش العلّيـق والقصـب، يحـاط مدخلهـا بحجـارة كبـيرة ملسـاء تغـرق حتـى أنصافهـا في المـاء، أمـا مـا يبقـى ظاهـرا منهـا، فنقـف عليـه حـين نهـمّ بمـلء دلائنـا، كان صالـح الدرويـش أو «ورنيـط» - الكنيـة التـي تثـيره وتهيّجـه - بقامتـه الفارعـة وبنيتـه الضخمـة وسـحنة وجهـه المهيبـة، مـن يـشرف عـلى حراسـة الترعـة باعتبارهـا واقعة عـلى ملكيته، لذلـك فهـو لا يفتحهـا للاسـتغلال إلا مسـاء، حيـث كنـا نقـف في طابـور طويـل بانتظـار أن يصـلّي العـصر، فـإذا فـرغ أشرع بابهـا المشـكّل مـن جـذوع أشـجار متعامـدة، ثـم قصـد مدخلهـا، واضطجـع مراقبـا موجهـا، يفعـل ذلـك بصوتـه الجهـوري القـوي وعصـاه المديـدة، ويتجـاوز

أحيانا صفة الحراسة إلى فعل التحقيق، فيسأل السّاقي ابن من أنت؟ وأين والدك؟ ثم يتحوّل إلى التهكّم على السقاة حتى يبلغ بسخريته الصريحة الفجّة ما يجعل المقصود منا يستشيط غضبا من دون أن نظهر ثورتنا أو نعلن تبرّمنا إجلالا له وخوفا منه، فأتفه مشكلة معه قد تحرمك ورود ماء الترعة، الأمر الذي سوف يضعك أمام مساءلة الأهل عن السبب، لذلك فإنّ أكثرنا يتجنّب جدله حتى لا يغضب ويثور ويجنّ جنونه، لينهي خصامه إلى طرد يرغمك فيه على إحضار والدك ليشكوك إليه.

لأجل هذا خفناه، والتزمنا الصمت متجاوزين ما يحدث بلامبالاة ظاهرة، كانت وقفته توحي بالغطرسة، منظره، سحنة وجهه المتحفّزة، نظرته الشزراء، البلوز [1] والعمامة وأحيانا الرزة [2] الصفراء التي يتبدّى فيها وكأنه من الأعيان، صالح الدرويش، الاسم مخيف، تماما كقصص جبروته وبطشه التي تتكاثر، تتكاثف، ونحن نحاذر أثناء دخولنا وخروجنا الترعة، إيّاك أن تسيء إليه ولو على سبيل الدعابة، حتى النظرة فنحن لا نجرأ على النظر في عينيه وإن حدث وكلّمنا أو سألنا، فإننا نخفض رؤوسنا علامة الأدب ونجيب بما وسعنا القول، أما من يتهكمون عليه بذلك النداء الساخر «ورنيط» إنما يفعلون ذلك من وراء أحراش العلّيق، ينتظرونه ساعة يمر بسيارته البيجو 403 الرمادية، ثم يطلقون حناجرهم بالنداء مع تحريف أصواتهم ويختفون كالشياطين.

1. لباس تقليدي يشبه المئزر الطويل وهي تسمية فرنسية.

2 . لباس تقليدي يشبه الشاش الذي تُلفّ به الرأس وهو بلون أصفر ذهبي.

لم يسـمح بذلـك أبـدا، كان يغضـب ويثـور، يـرى في ندائهـم إهانـة لكرامتـه وحطّـا مـن منزلتـه، يفرمـل أحيانـا، يدفـع بـاب سـيارته، ثـم يترجّـل، يبحـث بعينـين حانقتـين عـن مصـدر الصـوت، مـن أيـن جـاء؟.. يسـبّ ويلعـن، يبصـق عـلى الأرض، يغمغـم بكلـمات لا تبلـغ الأسـماع، ثـم يواصـل طريقـه..

بيننـا نـردّد: إنّ صالـح لـن يغفـر مـا اقترفـوه، هـل اعتقـدوا أنهـم نجـوا بفعلتهـم؟ محـال، فمثلـه حقـود كجمـل، ليسـت سـوى مسـألة وقـت حتـى يقعـوا في الـشرك، وكان يـصرخ شـاهرا عصـاه: أولاد الكلـب مـا تحشـموش، واللـه نربّيكـم.. لكنهـم تفرّقـوا، فـصّ ملـح وذاب، كقـردة ذهبـوا بصيحاتهـم إلى دغـل، وبقـي هـو، متطلعـا إلى مـا وراء السـياج حيـث الأشـجار والعلّيـق، وشـيئا فشـيئا يتكاثـر الصمـت، ويهـبّ المسـاء بـاردا، تختفـي آثارهـم كأشـباح ويهبـط الظـلام..

هـذا مـا يحـدث غالبـا، بـين هـؤلاء الشـياطين الذيـن ينتقمـون لأنفسـهم شرّ انتقـام وصالـح الدرويـش، المعركـة مسـتمرة والجنـون لا حـدّ لـه، أمـا الغلبـة فـلا ترجـح في كفّـة حتـى تميـل إلى أخـرى، ينتـصرون عليـه بإطـلاق نداءاتهـم كبـوم مـن وراء الحُجـب، فيعـاود هزيمتهـم مـن خـلال تحرّيـه عنهـم ومعرفتهـم، ومـن ثـمّ حرمانهـم مـن وورد الترعـة، ولقـد تجـاوز ذلـك - فيـما أذكـر مـمّا بلغنـا مـن أخبـار- إلى تصعيـد وتـيرة تعاملـه مـع هـذه الزمـرة المارقـة، فقـد حملـه الغضـب ذات يـوم عـلى محاولـة دهـس أحدهـم بسـيارته، ولـولا سرعـة الفتـى وبعـض الحـظّ، لـكان قـد طرحـه أرضـا.

غير أنّ كل ما تناهى إلينا من قول عن صالح لم يكن سوى القشرة الخارجية، كأنه اللحاء الذي يخفي صلابة وحقيقة الشجرة، لقد عشتُ لأشهد له، ولأخبر بأمّ عيني ذلك التغيّر الذي طرأ على الحياة والكائنات والعلاقات والجمادات، أدركتُ من خلاله أن لا شيء يفلتُ من قبضة تحوّل يقلب الأشياء رأسا على عقب، إن هي إلا مسألة وقت وظروف حتى ننقاد إلى معرفة جديدة وكشوف لم تكن لتخطر على البال، وهكذا وجدتني اقتربُ من الرجل المخيف، بل وأركبُ سيارته الرمادية البيجو 403 بريك وأروح وأغدو إلى المدرسة البعيدة، أما كيف حدث الأمر؟ فبسبب ابن أخ له اسمه «أحمد». إذ كان تردّدنا على صفّ واحد في مدرسة واحدة هو ما جمعنا في صحبة أفضت إلى معرفة العمّ صالح الدرويش عن قرب، معرفة نبتت من تربة علاقة بابن أخيه، الأمر الذي كشف عن شعور أبوّة رسّخ في قلبي الإيمان بالمحبّة، الثمرة الوحيدة الباقية في شجرة الحياة.

لقد انكشف لبصري في صورة أخرى، هي أبعد عمّا عرفت، إنّ القشور لا يقول دوما حقيقة اللباب، كما لا يكاد يدلنا المظهر على الجوهر، انقلب الرجل بلمسة وحي من التجّهم والقوة والغضب إلى البِشر والرّفق والحِلم، فعرفت فيه كائنا جديدا، اختفت هيئة شرّه الأولى ولاح منه الصفاء كإشراقة تبدّد العتم، ترقرق في حضرتنا بحنو الأب رغم ما استأثر به محيّاه من أمارات الجدّ والعزم، ونثر بيننا شذا طيبة وسخاء يد وبسمة رفق، كانت معاملته لابن أخيه

لا تقـلّ عـن معاملتـه لي، فنحـن في المرتبـة الواحـدة، والاهتـمام الواحـد، ينتظرنـا معـا، ويسـأل عـن أحدنـا إذا مـا تأخـرّ..

مـع الوقـت، تحوّلـت معرفتـي في فهمـه مـن النقيـض إلى النقيـض، تـوارت ملامحـه القديمـة خلـف مـا انكشـف مـن طبعـه، لم يعـد صالـح الدرويـش الرجـل المخيـف، الـشرس، الغضـوب كـما عرفنـاه أول مـرة، بـل أمـسى قطعـة مـن الجـمال الإنسـاني المبهـر، وحالـة تشـهد لنـا وعلينـا في تاريـخ حافـل بألـوان مـن حيـاة طفولتنـا السـاحرة.

البردعة

كان منهمـكًا في خياطـة البردعـة، حملـق فيّ، وبصفعـة عـلى قفـاي زجـرني:

- أمْسِك جيدا ..

أفقـت، وانتبهـت إليـه، عـدت أرقـب المسـلّة 1 وهـي تدخـل وتخـرج سـاحبة معهـا خيـط الفيسـال 2. كان سريـع الحركـة في رتـق قطـع الخيـش، يـده غليظـة مشـقّقة كظهـر سـلحفاة، عروقهـا نافـرة زرقـاء، لم يهتـم لمـا يـدور حولـه قـدر اهتمامـه بمـا بـين يديـه، يضغـط بـكل قـوة الإبهـام والسـبّابة عـلى المسـلّة، ثـم يسـحبُ نحـو الخـارج محـاذرا مـن مغبّـة إصابتـي أو إصابـة نفسـه، فيـما كان في أحيـان أخـرى يسـتعين عـلى غرسـها في لحـم البردعـة التـي بـدأت تأخـذ (الفـورم) بطـرف الجيـلي 3، إذ كان يثنـي قماشـه ليصـير في سـماكة تمنـع عـن جلـد إبهامـه الأذى، ثـم يدفـع رأسـها بقـوة لتخـترق مـا يـلي مـن الخيـش.

1. أداة خياطة وحياكة
2. نوع من الخيط المتين
3. صديري، وهي تسمية فرنسية

لم يُخفَ عن عيني صلابة تكوين البردعة من الداخل، كما لم يخامرني شكّ بأنّ شكلها الذي بدأ صغيرا قد راح يكبر فعلا مع الوقت، وهو ما عكّر صفوي وحملني على التفكير في لفت انتباه جدّي إلى ما يحدث.

أيكون قد نسي أمر الحجم في انغماسه وتوحّده الكامل مع التفصيلات والأجزاء الفرعية التي حجبت عنه رؤية البردعة كاملة؟ لا أعرف.. لكن الذي أدركته ساعتئذ أنّ جدّي لم يكن يلوي على شيء عدا إنجاز ما كان بين يديه، فقد كانت المسلّة في حركة دائبة، والبردعة تكبر، تنمو، تتعملق، وأنفه يقطر من أثر زكام عارض، وهو لا يكلّف نفسه عناء إخراج المنديل ولا يمسح حتى بكمّ معطفه، ومنه رائحة الحمار، تلك الرائحة التي يتواطأ الحيوان وروثه على إنتاجها.

ممسكا بطرف البردعة، أرقبُ همّته، يده السلحفاتية الكبيرة بحركة إيقاع موسيقي متناغم، خلف جريانها يرتسم خطا في جسم البردعة التي زادت عن حجم ما توقّعته.. يا إلهي كل هذا الثقل على ظهر الحمار؟ ! قلتُ لنفسي، وأنا أغيب مرة أخرى في سهو بعيد جعل البردعة تسقط من يدي، والصفعة آتية لا محالة، لن يتوانى جدّي عن تنبيهي بالطريقة التي تعيد يقظتي وتجدّد انتباهي وتشحذ همّتي وتعلن حضوري، لكني تداركت الأمر بسرعة فائقة إذ التقطتُ طرف البردعة عن الأرض وأعدته إلى حجري هذه المرة..

- يا ولدي أمْسِك جيدا فيم سرحتَ؟..

لـذتُ بالصمـت، عـدتُ إليـه بعينـين محمّلتـين بالأسـف، حمدتُ اللـه عـلى تأنيـب لم يتجـاوز العطـف، في عينيـه الكبيرتـين المحمّرتـين رقـدت آثـار دمـوع، كأنّ بقايـا معركـة بحريّـة نامـت فيهـا النـار عـلى صـدر المـاء، خفـض بـصره إلى مسـلّته، لاحقتـه بنظـرتي، بـدت لي قطـرة مـاء واحـدة معلّقـة عـلى أرنبـة أنفـه الخشـن، فيـما أناملـه تعالـج بخـبرة ودرايـة آخـر اللمسـات عـلى (فـورم) البردعـة التـي راحـت تكـبر، تصـير بحجـم البيـت، بحجـم الحقـل، بحجـم الطائـرة..

سـهوا سـقطت مـن يـدي، نسـيتُ قطـرة المـاء المعلّقـة عـلى أرنبـة أنفـه، نسـيتُ يـده السـلحفاتية، عروقهـا النافـرة، نسـيـ... لا لم أنسـها، هـا هـي تعيـدني إلى وعيـي بالواقـع، يسـألني بصوتـه الجهـير:

- فيم تفكر يا ابن الكلب؟...

- جدّي .. هذه البردعة لن يتحمّلها الحمار..

الحاوي

أراه لأول مرة..

تكدسـنا في السـاحة الفسـيحة، تسـلّق بعضنـا الأشـجار، لاحـت شـمس ربيعيـة تشـعل حماسـنا، تدافعنـا بالمناكـب بحثـا عـن أماكـن تمكّننـا مـن رؤيـة واضحـة، حلّقـت أحاديثنـا البريئـة بأجنحـة السـؤال والتخمـين، أسـهبنا في وصـف قدرتـه الخارقـة في تحويـل كل مـا يقـع تحـت يـده إلى كائنـات غريبـة..

وانتظرنا...

زادت رغبتنا بجرعات الشّوق، ويئس بعضنا فقالوا:

- لن يجيء ..

تشبّث آخرون بالأمل، فقالوا :

- سيجيء..

وكي يزيدوا من جرعة إيمانهم بحضوره، أضافوا:

- ما دمنا قد دفعنا نصف دينار، فلا يمكن له أن يلغي عرضه.

هكـذا تمسّـكنا بحبـل الصـبر دواء لعلـة الحاجـة، ورجـاء للقلـوب الصغـيرة، وترياقـا للأعـين المجهـدة تحـت شـمس أفريل.

في خـلال ذلـك تسرّبـت بيننـا أحاديـث بدائيـة لا تقـوم عـلى منطـق، مجـرّد رؤى مضمخـة ببخـور سـحريّ نفّـاذ.

طلع صوت يقول:

- باستطاعته تحويل المناديل إلى حمائم تطير.

قال آخر:

- كـما بقدرتـه أن ينـشر أجسـامنا، ثـم يعيـد تركيبهـا دون أن تنـزف قطـرة دم واحـدة.

اسـتفحل السـحر، واسـتأثر الفضـول بانتظارنـا العاصـف، نحـن الذيـن لم نشـهد المعجـزة، ولم نـر مـن تلـك العـوالم إلا مـا عرفنـاه بقـوة الخيـال المجـرّد في سـيل الحكايـة وهمـس الأحجيـة، أمـا الذيـن وصفـوا وأسـهبوا، فقـد شـهدوا معجزاتـه، وخـبروا بـأمّ أعينهـم عبقريـة تلـك الحيـاة التـي لا تضاهيهـا حياتنـا، حيـاة تنبـت عـلى أصابعـه ويديـه وحركاتـه، فتشـحذ الانتبـاه، وتعلّـق الأعـين، وتُخْـرِجُ الأرواح مـن سـكونها الهـادئ..

تلكم هي الحياة التي ننتظرها.

مناديـل وأرانـب وأزهـار، حمائـم تُطلَـقُ في الهـواء فتطـير بعد أن كانـت مجـرّد خـرق مـن قـماش، هاتيـك الكائنـات التـي تتجسّـد بـكل حقيقتهـا، والتـي لا نملـك القـدرة عـلى دحضهـا أو تكذبيهـا أو الطعـن في صحّـة حضورهـا الواقعـي، علينـا أن نؤمـن إذا، فـلا شيء أقـرب إلى قلوبنـا إلا لمسـة إيمـان مـن يديـه، وكي يحصـل كل هـذا وجـب أن أرى لأشـهد معجزاتـه، وعليـه بالمقابـل أن يجـيء كي يقطـف ثمـر الإيمـان بـه.

* * *

أخيرا جاء...

دبّ الحـماس، اشـتعلنا بالفضـول والرغبـة، اشرأبـت أعناقنـا إليـه، هـدأت الأعـين عنـد وقفتـه، أسـلمناه مـا تبقّـى مـن نبـض قلوبنـا الصغـيرة المتوثبـة، ذوبنـا أحاسيسـنا بـين يديـه، هـا هـو يبـدأ، بلباسـه الغريـب يعتـلي المنصّـة الكبـيرة العاليـة، وبحركتـه الجذابـة يذرعهـا غامـرا أشـواقنا، دافعـا تركيزنـا إلى آخـر الالتحـام.

أزهـار تظهـر مـن عـدم، منادیـل تطلـق مـن رعشـتها بـين أصابعـه حمامـات بيضـاء، أرانـب تنكشـف مـن تحـت قبعتـه، هـذا الكـون الجميـل الفاتـن السـابح في أسراره الكاملـة يزيـد مـن عطشـنا ويتوغّـل في أعمـق منطقـة مـن أرواحنـا.

* * *

مع الأيام ...

نتماثـل للوعـي، نمـضي إلى الحيـاة بصحـة مهاراتنـا ومعارفنـا الجديـدة، نقـوض بنـاء الطفولـة بـكل مـا فيـه، لنبنـي عـلى ركامـه أسـس حاضرنـا..

لكن..

لسـبب مـا، فـإنّ تلـك المنطقـة العـذراء مـن الـروح، والتـي تخفـي سـحر الحـاوي تبقـى كـما هـي.

حديث النار

تُضرم نـار الشـتاء، نتحلّـق حـول ألسـنة لهبهـا طلبـا للـدفء، في الخـارج تزمجـر العواصـف بـكل ضراوة، وينقـر المطـر بحبّاتـه البـاردة سـقف غرفـة ملحقـة ببنـاء البيـت.. هنـا، كنـا نقـضي أيـام الشـتاء البـاردة، داخـل غرفـة محوّطـة بجـدران مـن طـوب، مسـقوفة بقصديـر مرتكـز عـلى ألـواح خشـبية تتعامـد مـع أغصـان أشـجار، بابهـا خشـبيّ قديـم متـآكل لا يـكاد يـردّ صفعـات الريـاح، وظهرهـا دون نافـذة تـصرف عنـا الدخـان، إليهـا نـؤوب عقـب كل غـارة نهـب أو صيـد، نجـدّد دفء ثيابنـا وأجسـادنا، ثـم نمـضي، في أيدينـا المـوت وعـلى وجوهنـا الرغبـة وفي أعيننـا الجمـوح، ننصـب الفخـاخ، ونختفـي كأشـباح في انتظـار أن تقـع الفريسـة، غـير أنّ الـبرد يحرمنـا القـدرة عـلى المقاومـة والبقـاء خارجـا لفـترة أطـول، فأغلبنـا لا يصمـد كثـيرا تحـت وابـل المطـر وعصـف الريـح، مـا يضطرنـا إلى الهـروب مـن شـدّة وهـول الـبرد بأيـد متجمّـدة وأسـنان مصطكّـة وأجسـاد مرتعشـة عـلى شـفاه مزرقّـة وأنفـاس متقطّعـة، حيـث نلتـفّ حـول نـار ينعكـس سـناها

عـلى وجوهنـا، ويتعـالى وهجهـا بـدفء نبلـغ منـه طمأنينـة تردّنـا إلى خمـول لذيـذ، نقاومـه بإرهـاف السـمع إلى طقطقـة الحطـب المتداخلـة مـع وقـع انهـلال المطـر. ومـن ثـم نـذوب في حكايـات يـبرع بعضنـا في روايتهـا.

باسـتمرار عبـوس الطبيعـة وتجهّمهـا في الخـارج، يطـول بنـا المقـام، ويتسـلّل الفـراغ إلى نفوسـنا، مـا يحملنـا عـلى ابتـداع جديـد يُشـغلنا عـمّا نحـن فيـه، فيصنـع إذّاك بعضنـا ومـن ورق الكاغـد لفائف سـجائر نتسـلّى بهـا، وكـم تُطـرب أرواحنـا وتهنـأُ نفوسـنا، ونحـن نضـع سـاقا عـلى سـاق بحركـة نقلّـد فيهـا الكبـار، ثـم نشـعل أطـراف تلـك السـجائر مـن الجمـر المتناثـر حـول الكانـون، نسـحبُ منهـا أنفاسـا عميقـة حتـى إذا مـا احتبـس دخّانهـا في صدورنـا لهنيهـة، زفرنـاه..

نعيـد الكـرة وسـط ضحـكات لا تنقطـع ونكـت نـسرّي بهـا عـن أنفسـنا، يتبـارى بعضنـا في قـول الجديـد الطـارئ عـلى إيقـاع تـآكل الحطـب وهـو يتحـوّل إلى جـذوات نـار، غـير أنّ متعتنـا لا تـدوم طويـلا، فأمـام بلـل بعـض الجـذوع تفقـد النـار قوتهـا وتتراخـى قبضتهـا، لتندلع أدخنـة حالكـة تخنقنـا وتحجـب رؤانـا، نتدافـع بعدهـا إلى الخـارج لالتقـاط أنفاسـنا، ندعـك أعيننـا المحمـرّة مـن أثـر الألم ونحـن نضحـك..

* * *

نعـود، نتحلّـق مـن جديـد حـول وهجهـا، وفي غمـرة الـدفء تمتـد أيدينـا إلى أعـواد الحطـب المشـتعلة، فيتمثّـل لنـا صـوت أمـي وهـي تحذّرنـا مـن عاقبـة فعلنـا بقولهـا:

- بلا تلعبوا بأعواد الحطب لئلا تتبوّلوا في أفرشتكم ليلا.

نصـدّق كلماتهـا، نؤمـن بدافـع خفـيّ، ونحـرم أيدينـا مـن ملامسـة أعـواد الحطـب المشـتعلة. لكنـي أدرك بعـد وقـت مـن انقضـاء العمـر وانحصـار حـوادث طفولتـي في نقطـة مـن المـاضي البعيـد، أنّ طريقـة والـدتي في زجرنـا قـد اتخـذت شـكل الخرافـة، تلـك الفكـرة التـي تكـون أشـدّ التصاقـا وأبعـد إيمانـا في حيـاة طفولتنـا.

حديث الحب

(ع. ت) يقظـة الـروح الأولى مـن سـكرة الكـرى، وشـذا أول ربيـع في دورة حيـاة القلـب، ألقاهـا وهـي تقفـز درجـات سـلّم المدرسـة درجـة، درجـة، مـردّدة أغنيـة جميلـة، سـاهية عـمّا دونهـا، أتأملهـا بإعجـاب لا أفهـم سرّه، وأحيطهـا برعايـة جارفـة يعجـزني تفسـيرها.

أنتظرهـا خـارج سـاعات الـدرس، لأتمـلّى سـحرها ورهافـة قدّهـا دون محاولـة لاقتحـام أو قـرب أو إيحـاء، لا قـدرة لي عـلى اخـتراق مـا أجهلـه، فالبنـت في غايـة السـعادة، رقراقـة كجـدول، نقيّـة كثلـج، جميلـة كزهـرة برّيـة..

أدعهـا لنفسـها، وأغيـب في خيـالاتي الطافحـة بالأشـواق، أكابـد حرقـة، وأعـاني خيبـة، لا أحـد يعـرف سرّي، ولا حتـى هـي..

أطـلّ عليهـا مـن نافـذة القسـم أثنـاء لعبهـا في سـاعات الفـراغ بفنـاء المدرسـة..

فأنسى كرّاستي..

وأنسى زملائي..

وأنسى معلمي..

أمضي خلف سراب الحلم الجميل، لأصل عطشي بينابيعها.

تـدور الأيـام، بدورانهـا أكـبر، أعـي، وأدرك أنّ الـذي كان ليـس سـوى عبـث طفولـة، تنثـال عـليّ الذكـرى، فتفـترّ شـفتاي عـن بسـمة حنـين.

الكتاب

لمح شغفي بالكتاب، وقرأ رغبة امتلاكه في عينيّ فقال:

- عشرون سنتيما وهو لك.

صدّقتـه، ودفعـت لـه، امتلكـت الكتـاب، أغوتنـي صفحاتـه الصفـراء، وقصصـه الطريفـة، ورسـوماته الحالمة، فأسـلمته كل اهتمامي، صـار قطعـة وجـود نابضـة في حيـاتي، غـير أني لم أهنـأ بصحبتـه طويـلا، إذ عـاد فتحجّـج بالـدرس وسـلبني إيّـاه كـرة أخـرى.

- أعرني إيّاه، لأحضّر واجبا مدرسيا من بعض نصوصه.

- متى ستعيده لي؟..

- حالما أنتهي، لا يتطلّب الأمر غير ليلة واحدة.

مضـت ليلـة، ليلتـان، ثـلاث، ولم يـرق قلبـه لانتظـاري، ولا حمـل نفسـه عـلى الاعتـذار، في خـلال ذلـك تجاذبـتُ أطـراف حديـث مـع نفـسي: أيكـون قـد نـسي أمـر الكتـاب وأحقيّتـي في امتلاكـه بعـد أن دفعـت لـه ثمنـه؟.. وجدتنـي أخـرج عـن صمتـي بعدهـا، وأسـأله:

- أين الكتاب؟..

- ألن تبتاعه مني؟.. قال.

- لكني دفعت لك قبل هذه المرة.

ضحك باستهزاء وهو يضيف:

- أتعتقد أنّ مثل ذلك الكتاب يساوي عشرين سنتيما؟..

كنت أدرك أنه يستغلّ فارق العمر بيننا، والذي يتخذ منه إشعاع سلطة لا قبل لي بمقاومة سحره، وصوت أخوّة يجبرني على الانصياع وعدم التأفّف والشكوى، ثم حاجة قلبي ولهفة روحي ورغبة نفسي في امتلاك الكتاب.

* * *

لم أكن أدّخر فلسا واحدا، وعليه فقد طلبت إليه أن يمهلني بعض الوقت حتى أتدبّر أمري، سوف أطلب من والدي ثمن الكتاب، رمقني بنظرة توجّس، وهو يقول:

- أريدها قبل الغد..

لم تواتني الجرأة على فضح أنانيته، أو لعله خوفي من والدي وهو يلجمني بحكمته، من أنّ الكتاب ليس من مقرّراتنا المدرسية، وأننا نُهمل ما بين أيدينا من درس في سبيل كتاب لا يمت بصلة إلى مقرّرات تعليمنا، لكن الرغبة أكبر من أن تخذلها

عواصـف الأفـكار أو تلجمهـا رؤى الحكمـة أو تحبطهـا قلـة ذات اليـد..

وفي الغد ...

كنت أدفع له، وهو يهمس:

- هو لك ..

مـددت يـدي، في عينـيّ رغبـة امتـلاك، وفي روحـي شـغف لا تخطئـه العـين.

السبورة

ثبّتها على الجدار بإحكام، وقال:

- من اليوم فصاعدا ستكون أداتكم الأنجع للدرس..

أينعت أزهار الفرح على وجوهنا الصغيرة ونحن نتعرّف إلى فكرته الجديدة، أقبلنا على السبورة بأرواح متقدة وأعين متلهفة، جاعلين منها مساحة لفوضى حروفنا، وشت وقفاتنا أمامها بحرّية أجسادنا التي ارتهنت زمنا في مساحة سأم على حصير الحلفاء، ولمح دأبنا في استعمال أداته، فسأل:

- هل يريحكم الدرس بهذه الطريقة؟..

كان الوقوف إلى السبورة، وملامسة خشبها بقطعة طباشير متعة لا تضاهيها متعة أخرى، إذ رأينا في فكرته تلك جديدا لم يسبقه أحد إليه، ومنه فقد رحنا نتبادل أدوار الدرس عليها بشغف مستعر، شرحنا على وجهها ما عسر فهمه، وحللنا ما استعصى علينا حلّه، غير أنّ غيابه عنا ألهمنا بعضا من حرّية

التـصرف، وعتقـا لرغباتنـا المنفلتـة، كان شـقيقي سـعيد أسـبقنا إلى اكتشـاف ذاتـه عـلى وجـه تلـك السـبورة مـن خـلال رسـوماته الأولى التـي بـدأ ابتداعهـا، ثـم تطـورت فيـما بعـد لتنتهـي بـه أسـتاذا لمـادة الفـنّ التشـكيلي.

* * *

لم تخيّـب الفكـرة أملـه فينـا، فقـد عـاش مـا وسـعه ليشـهد كفاحنـا في الحيـاة، ويتـذوق طعـم نجاحاتنـا بقلبـه، وفي أخريـات أيامـه فتـح أسـارير وجهـه عـن بسـمة رضـا، وهـو يـرى غرسـه شـجرا يظلّـل بعضـا مـن أيامـه الباقيـة .

السقوط

جرينا معا...

بعـد أن أغـواني بـأنّ الوصـول إلى المدرسـة وفي وقتنـا المحـدّد لـن يتـم بغـير فكرتـه تلـك، برغـم عرجـه فقـد أصرّ، ذكّرتـه بالأخطـار التـي قـد تنجـم عـن ذلـك التـصرّف فسـألني مسـتهينا:

- هل أنت مستعد لاستدعاء والدك؟..

صمـتُّ عـلى مضـض، فاسـتغل ذلـك ضـوءا أخـضر لتنفيـذ فكرتـه..

مرقت شاحنة..

بأقـصى سرعـة انطلقنـا، وبقفـزة تهـوّر طرنـا، وبأيـدي قـردة تشـبّثنا بسـياج الشـاحنة الخلفـي، حانـت منـي نظـرة إلى إسـفلت الطريـق فرأيتـه يتراجـع شريطـا سريعـا كأنمـا تجذبـه يـد سـحرية، وتدفـق الهـواء بـاردا ملطًـا وجهـي مشـعثا شـعري:

- في المنعرج ستبطئ سرعتها، فاقفز ..

أومـأتُ بـرأسي أن نعـم، تخيّلـت الهـلاك المحـدق بنـا لـو أننـا أخطأنـا فعـل النـزول أو خانتنـا لحظـة القفـز، التفـتُّ أبحـث عـن عينيه لأشـفي نفـسي مـن حـيرة علّقتنـا مـا بـين السـماء والأرض، لقيـتُ وجهـه وهـو يعانـد الرّيـح محـاولا إخفـاء ألم ظاهـر لم أدر لـه مبعثـا، خيّـل إليّ لحظتهـا أنّ رأسـه يترنّـح وعينيـه تـزرّان وجسـمه يتهـدّل، هـل بـدأ عرجـه يخونـه في منتصـف المسـافة؟ أكشـفت السـاق العرجـاء التـي أطلقتـه بأقـصى سرعـة وطيّرتـه في الهـواء قبـل هنيهـة عـن خلـل فـادح يخذلـه الآن؟

صعقتنـي الوسـاوس، لا فكـرة خـلاص قريبـة مـن يـدي أتشـبّثُ بهـا كي ننجـو مـما نحـن فيـه، لا لغـة تطيـع اللسـان المعقـود مـن أثـر الصدمـة، فقـط عينـان تشـعّان باسـتجداء مقتـول بالخيبـة، فيـما الشـاحنة تنهـب الأرض ولا تبطـئ، ترتفـع وتنخفـض، تميـل وتسـتقيم، لـن تبلـغ المنعـرج الـذي سـوف تبطـئ مـن سرعتهـا فيـه.. همسـتُ لنفـسي وأنـا أنتظـر أن يقـول مـا يجـب في مثـل موقفنـا، ففـي النهايـة هـو مـن اقـترح هـذه المشـكلة التـي علّقتنـا كخـرق عـلى حبـل غسـيل، لكنـه لم يجـب، ظـلّ عـلى ضياعـه، وظللـتُ أنتظـر لحظـة تحرّرنـا مـن قبضتهـا، بـدا لي الزمـن سـاعتها حالـة ثبـات حرمتنـا العـودة إلى الأرض..

* * *

برغـم كل شيء فقـد عدنـا، انتـصرت لحظـة الحضـور بشـكلها ولونهـا وواقعيتهـا عـلى فاصـل ذلـك الغيـاب، وجدتنـي أتحلّـق مـع مـن تحلّقـوا حولـه وهـو يفـترش الأرض فاقـد الوعـي، ولغـط وهـرج يتصاعـد مـن حـولي، وأنـا أحمـل محفظتـي وأصنـع للعـين فُرجـة نظـر عـبر أيـدي وأرجـل الرجـال المتشـابكة، محـاولا اسـتيعاب مـا يحـدث.

رأيت فما يزأر:

- هات المفتاح..

كان العـرق يتفصّـد مـن جبـاه مجعّـدة، بـدت وجوههـم مغضّنة محفـورة بوشـم الحيـاة عـلى أجسـاد فارعـة داخـل ثيـاب رثّـة غـير متناسـقة، أذرعهـم قويـة مشـعّرة، أحذيتهـم ممزّقـة مغـبّرة، زكمـت أنفـي رائحـة عـرق مختلطـة بالـدم، رأيـت بعدهـا يـدا تفتـح كـفّ صاحبـي، ثـم تعالجـه بتدويـر مفتـاح عـلى راحتـه.

كنـت مأخـوذا بلمسـة سـحرية، لفّنـي الخـوف، ربّـاه مـا الـذي يجـري أمامـي؟ الولـد ملقـى عـلى الـتراب بـلا حركـة ، والرجـال يحيطونـه إحاطـة السـوار بالمعصـم، سـمعته يشـخر كذبيـح، ثـم فـاض فمـه برغـوة كزبـد البحـر .

صدمتنـي الصـور المتباينـة التركيـب، المفتقـدة لمنطـق يقنـع فهمـي الصغـير بمـا يجـري حـولي، لا أملـك في هـذه الفـوضى غـير ذعـري ونظـرة اسـتحوذ عليهـا قلـق عاصـف، وصرخـة مكتومـة في صـدري:

- نـــ.....ا.....صـ.....ر .....

لم يجبني ..

* * *

مشينا معا...

وأنـا أحـاول بفقـر معرفتـي صياغـة علاقـة فهـم لأجـزاء الحادثة، فـتراءت لي الصـور وكأنهـا كابـوس مـروّع هزّتـه عـين اليقظـة.

الإيمان

اتفقنا أن نصلّي..

عزمنا بلا إيمان، لاح الخاطر في لحظة وحيّ، وانكشفت في نفوسنا رغبة راحت تكبر..

قال يوسف:

- نصلّي في المسجد.

وقال عبد الرحيم:

- سوف أحضر كتيّبا يرشدنا إلى كيفية الوضوء والصّلاة.

بدأ الأمر بيسر، كان كل شيء في متناول اليد تقريبا، رحت أتخيّلنا بعدها، ونحن ندخل مسجد الحيّ، نزاحم الكبار في الميضأة، ثم نقف إلى جوارهم في أول الصف، لكن..

ما معنى كل هذا؟!.. بدا كأنّ ما نُقدم عليه مجرّد تغيير في حياة ضقنا بها، ورغم عزمنا فقد افتقدنا إلى حماس الحبّ الملهم، وجدتني بعدها أعزو الأمر إلى محاولة تقليد الكبار، نعم قد يكون هذا هو الدافع الذي جعلنا نتفق في جلسة من جلساتنا العشوائية.

لم أسأل يوسف ولا عبد الرحيم عمّا دفعهما إلى هذا العزم، لا أعرف ما الذي انطوت عليه دواخلهما، كنا نلعب كأيّ يوم، فجأة برق الخاطر وحدث ما حدث.

للحقّ فإنّ الأمر لا يعني لي الكثير، المهم الصلاة أما دوافعها فمجرّد وسواس عابر، لا فرق في النهاية بين أن نصلّي بدافع التغيير أو التقليد، المبدأ أن نلتزم، من الكذب أن أدّعي أنّ للأمر علاقة بنفحة إيمان أو دافع حبّ، لكنني وجدتُ نفسي ضائعة في صحراء لا نهاية لها، بدأ تفكيري ينصبُّ على ما وراء الصلاة، ماذا بعدها؟!..

كيف نُنْبِتُ لنا حياة جديدة في تربة جديدة؟.. حياة بلا كذب ولا سطو ولا فحش ولا اغتياب، كيف نكفُّ في لحظة واحدة جادّة عن حياتنا الأولى لنبدأ حياة أخرى؟.. وجدتني أخرج عن صمتي متسائلا:

- يعني لا كذب، لا سرقة، لا فحش بعد اليوم؟..

رنت إليّ أكثر من نظرة، وعلقت على وجوهنا أمارات أسئلة عقيمة .

لا مجيب، ففي حمّى الفرح بالصّلاة نسيت هذه الأرواح الصغيرة ما الذي يتوجّب فعله، إنها ليست صلاة تنتهي بانتهائها، بل هي حياة أخرى تبدأ من حيث ننتهي، وقال عبد الرحيم:

- يجب أن نلتزم بالصلاة مهما كلّفنا الأمر.

وثمّن يوسف كلامه بإيماءة نقل إليّ من خلالها تردّده وخوفه، كان بين الرجاء واليأس، لا يعرف أيّ المواطئ يضع عليها قدمه، وقبل أن تنكشف حيرته نبس:

- نحاول، لا شيء يعسر أمام الإرادة.

ذكّرتهما بما يترتّب عن حياتنا الجديدة، وما يتوجّب من عفّة وطهارة وصلاح واستعداد لتحمّل المشاق والتبعات، وقد أظهرا نيّة التزامهما بطاعة جعلتني أقف أمام نفسي هامسا.. وأنت، ألست معنيا بالأمر؟.. بلى.. قلتُ لنفسي، إنما كنتُ أقيس إرادتي على إرادتهما، وأخاطبني فيهما.. لا أعرفُ إن كنتُ أهربُ منّي، من مواجهتي إلى وضعهما في حيّز الاستنطاق، ولكني وللحقّ كنتُ أفعل ذلك بنفسي فيهما، ووجدتني أردّد مع يوسف:

- نعم.. لا شيء يعسر أمام الإرادة.

إنّ حياتنا الجديدة تستدعي الكثير، أقلّها التحلّي بضبط النفس ورمي كل ما يُفسد الإحساس بتشوّه ما سوف نُقدم عليه، حتى رانيا فأنا لم أنسها في غمار هذه التجربة، بل إنها أولى مشكلاتي التي تخرج عن طاولة النقاش معهما، يجب أن أتكتّم ما وسعتني الحيلة، فأمر كهذا قد ينسف الفكرة برمتها، من الوجيه أن أنسى أمرها الآن ما دامت النيّة قد صدقت والعزم قد تأكّد..

لكن إلى متى؟..

وثانية وجدتني كالصدى أمام قول يوسف «لا شيء يعسر أمام الإرادة» أما رانيا، فتاريخ طويل حافل بألوان من الشوق والوجع، ذاكرة أخرى تزاحمني في فهم ما يحدث، ونعومة وارفة تغطّي بسحرها جفاف العمر وجدب الحياة، قطرة ماء في صحراء اليأس ونقطة بيضاء في أفق أسود، وها أنذا أستيقظ على فراغ

التجربـة وتبخّـر القطـرة وشرّ النسـيان..

نعـم يجـب أن تُنـسى، مـن المعيـب أن تحـضر في لمسـة هـذا العفـاف، أمـا مرورهـا إلى جـوارك فليـس أيـسر منـه غـضّ البـصر، مـا معنـى أن تجمعكـما طريـق واحـدة إن كانـت الطريـق قـد تنحـرف بـك إلى مـا لا يحمـد عقبـاه؟ والصـلاة، كيـف ستسـتقيم وأنـت بهـذا الاعوجاج؟..وأيّـة طهـارة هـذه التـي تخفـي معهـا في قلبـك شرّ حنينـك إلى امـرأة تجهـل كل شيء عنـك؟

في النهايـة فـإنّ حبّـي لم يكـن سـوى مشـكلتي أنـا وحـدي، أدركـتُ كالمسـتيقظ مـن حلمـه أنّ الصحـو يكشـف لي عـن جهلهـا الـصرف لـكل مـا تصطخـب بـه حيـاتي، أيـن أنـا مـن جـرأة توقفنـي أمامهـا بـوردة أو رسـالة أو حتـى بكلمـة؟ كنـتُ سـأتلجلجُ سـاعتها، ثـم أولّي هاربـا حيـث لا تقـع عينهـا عـليّ مـرة أخـرى..

وقطع خيالاتي صوت عبد الرحيم:

- نعم يجب أن نكفّ عن كل ما يُفسد صلاتنا.

وكـدتُ أسـأل.. ورانيـا؟.. وانتهـز يوسـف لحظـة صمتـي وقـال بحـماس مـن يريـد أن ينفّـذ القـرار:

- نعم نستطيع، يجب أن نكفّ عن شرورنا.

لنفـسي همسـتُ.. أيّ قـدرة هـذه التـي سـتجعلني أكـفّ عـن شرّ هـذا الشـوق، وكيـف أُسْـكِت جـوع قلبـي وروحـي إلى غيابهـا؟ وأنى لي أن أهـرب مـن وجههـا؟ وهـل بقـدرتي أن أتحـاشى رؤيتهـا كلـما

قاطعتنـا طريـق؟

بـدا الأمـر مروّعـا، وأنـا أزن شرّي الـذي لا يعرفـه أحـد - ولا حتـى رانيـا – في مقابـل مـا سـأُقدم عليـه، هـا هـما ينتظـران قـراري، كلمـة واحـدة قاطعـة تنقلنـا مـن أرض نحـو أخـرى، لفظـة صغـيرة تكنـس تاريخـا طويـلا مـن الآثـام والجنـون..

نعم نستطيع ..

ولنبدأ..

* * *

وبدأنا..

وبقـي ذلـك الحنـين الخافـت كالجمـرة التـي تقـاوم الرمـاد، معصيـة يكـبر شـوكها في روحـي، ولكنـي...

كنتُ أصلّي..

حديث الوداع

تزورنا رفقة والدتها صيف عام 1980، تمكثُ في بيتنا لنحو شهر، بمرور السّاعات تُرفع الكلفة بيننا وينطرح الحديث عذبا نقيا شفيفا كشهد من عسل، يفيض قلبي بخدر نشوة لذيذة، وتتنفس روحي شذا حياة خفيّة، فأهيم على وجهي في جنان الله العامرة بكل طيب ورطب..

تحدّثني بلكنة فرنسية لذيذة عن باريس وعمرانها وأضوائها، وتسرد في عفوية البراءة قصص الحياة الرغيدة ومغامرات الطفولة السّعيدة في أحياء «غرنوبل»، ويتاح لنا في خلال لحظات غفلة العائلة تدخين سجائر «الكامال» .

استيقظ في صباح من صباحات أوت المشرقة على هرج ومرج يملأ البيت، لأكتشف بعد هنيهة استعدادها للرحيل، ينفطر قلبي وتدمع عيناي وهي تطبع قبلة على جبيني وتحتضنني بحرارة المودّع، وتهمس:

- أنا ذاهبة.. كن بخير.

لأول مـرة في حيـاتي أدرك معنـى الهجـر، متجرّعـا مـرارة وداع قاهـر، مخفيـا في قلبـي الصغـير الخجـول بـذرة وجـع قاتـل، مستسـلما بخيبـة مـن لا حـول ولا قـوة لـه لقـوة يـأس مجهولـة، أعـاني بعدهـا ليـال طويلـة مسـهّدة، لا تلبـث أن تدبـر مخلّفـة وراءهـا ذكـرى مـرارة في القلـب.

حديث الموت

تـسرّب النّحيـب مـن بيـت الكـوّاشي، نـزل الخـبر عـلى رؤوسـنا نـزول الصاعقـة..

- مات عبد الجليل في الخدمة العسكرية.

داهمنـي الوجـوم، وسرى إحسـاس في قلبـي بـأنّ الحيـاة قطعـة كريهـة مـن عـذاب متصـل لا أول لـه ولا آخـر، في فـوضى شـعوري بالخـذلان والانكسـار النفـسي، حاولـت أن أذكـر آخـر مـرة قابلتـه فيهـا، فلـم أفلـح.

كان يومـا خريفيـا عاصفـا، اقتلعـت فيـه الريـح الأشـجار، في السـماء نـاورت سـحب داكنـة بخلـت بمطرهـا طيلـة ذلـك اليـوم.

لأول مـرة في حيـاتي أشـهد جنـازة التابـوت بـدل النّعـش، وألمـح بعـين الطفـل الشّـاردة رجـال الـدرك وهـم يشـاركون النـاس تشـييع الجثـمان..

بكت أمّه بعصبية.

وشمل الحيّ حزن رهيب.

تـواردت بعدهـا روايـات كثـيرة تناقضـت في أحداثهـا، وتضاربـت في تفاصيلهـا بخصـوص موتـه، حتـى طلـع مـن يعلـن أنّ الجثّـة ليسـت جثّـة عبـد الجليـل، وارتفـع صـوت أقـرب إلى الإشـاعة منـه إلى الحقيقية يقـول: إنّ شـقيقه قـد فكّـر فعـلا في نبـش القبر محاولـة منـه في التعرّف عـلى الجثّـة، وأنّ مـا يـردّه عـن عزمـه الآن هـو جـدّة الحادثـة لا أكـثر، في خـلال ذلـك رحنـا ننتظـر تقـادم الأمـر لنتسـقّط الجديـد مـن الأخبـار عـن هـذا المـوت الغريـب والجنـازة الأغـرب..

مضت الأيام..

تلاشى الحزن..

تلاشت معه الروايات..

وتـلاشى الجسـد تحـت أثقـال الـتراب حامـلا معـه سرا مـن أسرار هـذه الحيـاة.

هو

لم أره في حياتي قط، كما لم أجهد نفسي في تخيّل أختلق بموجبه صورة لوجهه أو هيئته، كل ما نعرفه عنه اسمه، واسمه لا يدل على كثير مما ترغب في معرفته عن كائن يبدو أقرب إلى الخرافة منه إلى عالم الواقع، رغم ذلك فقد كان حقيقة تعيش بيننا، وحالة من الحالات العارضة التي تفرض بقوة اختفائها هالة من الاحترام والتوقير، نعم، كان يجب احترام مثل هذا التلاشي الذي بلغ حدّ العدم أحيانا، وهو ما حرم الجميع ودون استثناء إمكانية التقوّل على مجهول يشبه الغيب، فلا أحد من أهل القرية تجرأ أو ادّعى أنه رآه أو لمح ولو طيف شبحه.

كان مجرّد حالة غائمة ضبابية، تحضر في الأحاديث العارضة، للتفكّه والتسرية عن النفس أحيانا أو لدواعي قدرة علوية في خلق غريب أحيانا أخرى، فهو الحاضر الغائب، الموجود المعدوم، المعلوم المجهول، الظاهر الخفيّ، نعرف اسمه وسكنه وجنسه لكننا أعجز من أن نفسّر هذا الوجود أو نصل أسئلتنا بإجاباته.

يشـهد الجميـع في قريـة محـاصرة بالعزلـة أنّ الفتـى لا يظهـر، أمـا مـا يجعلـه حالـة عاديـة تقـوم بيننـا - رغـم غرابتهـا - فمـردّه إلى بالـغ اهتمامنـا بمعاشـنا وأقـوات أيامنـا وتفاصيـل حياتنـا الصغـيرة المتفرعـة التـي تطالبنـا بالكـدّ والجـدّ، وإنّ حيـاة مثـل هـذه الحيـاة عـلى مـا فيهـا مـن شـظف العيـش وخشـونته، وكـثرة السـعي وقيمتـه لا تـترك للنـاس وقتـا للتفكـير والتأمـل وفحـص كماليـات حيواتهـم بعـين السـؤال، ومـا يهمهـم مـن كائـن لا يظهـر ولا يُـرَى؟..

عـلى هـذا أهملنـاه كـما نهمـل كل شيء غـير ذي قيمـة واضحـة حـاضرة، فاختفـاؤه لا يشـكّل لنـا مشـكلة، ولا يزيـد فينـا كـما أنّ ظهـوره لا ينقـص منـا، إنـه حالـة يتسـاوى حضورهـا وغيابهـا، ولا تنبـئ في فعليهـا إلا كـما يفعـل الامتـلاء بالفـراغ أو العكـس.

كان هـذا إحسـاس الكبـار، كي أكـون أكـثر دقـة في توصيـف حقيقـة الشـعور والأحـداث، وهـو شـعور كـما تـرى قـد نختلـف فيـه كثـيرا، فـما لا يُلفـت نظـر عجـوز أو كهـل قـد يُلفـت انتباه الأطفـال، وما لا يـزن في وعـي شـيخ قـد يثقـل إحسـاس صبـي، عـلى هـذا اختلفـت نظرتنـا إلى هـذا الكائـن وتبايـن حكمنـا عليـه، فأهملـوه بحكـم امتـلاء حياتهـم وانصرافهـم إلى جدّهـا، واشـتعل اهتمامنـا لـه بحكـم طفولـة فارغـة عـذراء، ورغـم اعترافـات كثـيرة تنفـي رؤيتـه، فقـد كان يظهـر لنـا نحـن الصبيـة - عـلى الأقـلّ - بـين الفينـة والأخـرى لا بوجهـه بـل بـركام الحجـارة التـي يرجمنـا بهـا، فتنـزل كالوابـل عـلى رؤوسـنا، مـا يحملنـا عـلى الفـرار بذعـر محتمـين بأيدينـا، ونحـن نـردّد:

- هو.. هو..

هـو لم يـبرح البيـت يومـا، وحيـد والديـه، والكائـن الوحيـد اللامـرئي في حياتنـا الطويلـة العامـرة بالأحـداث والفـوضى، ظللنـا لسـنين طويلـة نمنّـي النفـس برؤيـة وجهـه، نـردّد في مـا بيننـا:

- له شعر فتاة

- بل شعره طويل كشعر فتاة .

- يلبس تنورة، ويرفض السراويل التي يقتنيها له والده..

- ويجيد الطبخ ..

- وهو ماهر في صنع الحلوى ..

ثم نعود فنسأل:

- ألا يقلـق.. ألا يعتريـه القلـق وهـو سـجين البيـت كل هـذا العمـر؟..

لا جـواب لدينـا، مجـرّد افتراضـات وتخمينـات، حتى الذيـن رأوه، أو ادّعـوا أنهـم رأوه لم يفلحـوا في نقـل صورتـه إلينـا، تباينـت أوصافهـم واختلفـت تقديراتهـم، وبقـي « هـو» علامـة سرّيـة لم نـر وجههـا ولا سـمعنا صوتهـا، لمسـة سـحر تحيـا بيننـا، سـاخرة مـن أسـئلتنا، هازئـة بفضولنـا، معرضـة عـن شـوقنا، لكنهـا تنجـرّ أحيانـا إلى كشـف وجودهـا بوابـل الحجـارة الـذي تمطرنـا بـه كلـما زادت رغبتنـا وكـبر فضولنـا في اسـتفزاز سـكينتها..

كنـا نفـرّ حينهـا كجـرذان مذعـورة، يحتمـي بعضنـا بالجـدران والشرفـات، ويـردّد آخـرون مـن ذوي الألسـنة السـليطة:

- لقد أجابكم ابن الكلب.

أرض القراءة

بـدأ الأمـر مـع تفتّـح أكـمام زهـرة الوعـي، المسـاحة التـي نملـك فيهـا القـدرة عـلى تأتـأة أول الخطـو في طريـق القـراءة، هنـا، حيـث بإمـكان الكائـن أن يـضيء بريشـة المخيّلـة حيـاة الكائنـات والأحـداث مـن تجريـد الحـروف الميّـت نحـو تجسـيد الحيـاة الحـيّ، مـن هـذا الموضـع بالـذات بـدأت البشـارة، ووقـر في القلـب صـوت العطـش الأول، كان أكـبر أشـقائي دليـلي إلى النبـع، مشـيتُ خلـف صوتـه إلى أول الكتـب، فاتحـة أول الوحـي، وحجـري الأول الـذي غـاص في أسـاس أرض مكتبتـي الصغـيرة التـي راحـت تكـبر مـع الوقـت بالسرقـات أول الأمـر، ثـم بالـشراء حـين أدركـت فداحـة مـا كنـت أرتكـب مـن حمـق وذنـب..

السرقات

بـدأتُ القـراءة لأدبـاء الـشرق، كنـتُ أرسـل شـقيقي رفقـة صديـق لـه لقبنـاه بـ « الـبرق» لخفّـة يـده في النشـل إلى مكتبـة البلديـة، وأوصيهـما بسرقـة العناويـن التـي تناسـب ذائقتـي، كثـيرا مـا خيّـب « الـبرق» ظنـي، فقـد كان لا يفقـه في القـراءة الـشيء الكثـير، إذ اسـتهوته الكتـب السـمان ذوات الصـور الزاهيـة حتـى لـو كانت بلسـان غـير اللسـان العـربي، كتـاب واحـد استحسـنت لـه سرقتـه وحمـدت لـه فيـه مصادفـة نهبـه، هـو كتـاب «روح العـصر» للناقـد عـز الديـن إسـماعيل، ورغـم أنّ الكتـاب لم يتناسـب ووعـي تلـك المرحلـة مـن عمـري إلا أني رأيـت في ذلـك قيمـة متخفيـة في المسـتقبل، لقـد كان ذلـك الاستحسـان نابعـا مـن شـغفي بـكل معقّـد لا تطالـه يـد الفهـم، ومنـه كوّنـت تحليـلي أنّ مـا لا يُفهـم في عمـري هـو مـا يحمـل قيمتـه ووزنـه في عمـر آخـر.

مـن جهتـه فقـد بـرع شـقيقي الأصغـر في سرقاتـه، فوقعـت في نفـسي الموقـع الـذي أحببـت، وأحسـب أنّ العـشرة بيننـا - باعتبـاره

أخـي - ومـا كان يلحظـه في يـدي مـن عناويـن هـو مـا سـاقه سـوقا إلى ذوقـي، فكانـت سرقاتـه تـدور في فلـك القصـص والرّوايـات، كان كولـن ولسـون ومحمـد عبـد الحليـم عبـد الله وغسـان كنفـاني والطيـب صالح وهمنغـواي، تنّوعـت قـراءاتي بـين الـشرق والغـرب بتنـوّع سرقاتـه.

مـن غريـب أمـري أني لم أكـن أرى في مـا نفعلـه نحـن الثلاثـة، أنـا الآمـر وشـقيقي وصديقـه المنفذيـن، قلـتُ لم أكـن أرى فيـما نقـدم عليـه نقيصـة بـل بالعكـس أقنعـت نفـسي وأقنعتهـما أنّ مـا نقـوم بـه هـو العقـل عينـه، وأنّ « العـمّ أحمـد» أمـين مكتبـة البلديـة يسـتحقّ منـا هـذا السـطو البشـع، أولا لجلـف في طبعـه يقابـل بـه كل مـن يدخـل المكتبـة، وثانيـا لزهـد النـاس في القـراءة والانـصراف عنهـا، ومـا أكـثر مـا دلّلـت على قـولي برؤيتـي لتلـك الكتـب النفيسـة والقديمة ذات الأوراق الصفـراء، وهـي بكامـل عذريتهـا ملتصقـة الصفحـات لم تمسسـها يـد ولا وقفـت عليهـا عـين.

كانـت تلـك الكتـب التـي نهباهـا هـي الأسـاس الـذي بنيـتُ عليـه مكتبتـي، وذقـت منهـا لـذة وشـهد وحـلاوة القـراءة، وكثـيرا مـا التحمـت بتلـك العـوالم الفارهـة السـحرية التـي تخلقهـا الحكايـة، وشـيئا فشـيئا راحـت عـادة القـراءة تترسّـخ، وزادت حاجتـي إلى الكتـب في وقـت تراجعـت فيـه رغبـة شـقيقي وصديقـه عـن السرقـة والسـطو، فلـم أجـد بـدا مـن أن اتخـذ لـ «السـويقة» طريقـا حيـث يعـرض باعـة الكتـب القديمـة بضاعتهـم، ويمنحـون فرصـة مسـاومة للزبـون حتـى يـرضى عـن سـعر بخـس، فيدفعـون إليـه الكتـاب عـن طيـب خاطـر

ويقبضـون ثمنـه عـلى عكـس مـا يحـدث في المكتبـات العصريـة التـي لا تبيـع إلا الجديـد مـن الكتـب وترفـع أسـعارها فـوق مـا يحتمـل جيـب فتـى مثـلي.

لأجـل هـذا كانـت السـويقة هـي المـلاذ، وكان باعتهـا هـم الذين يزودوننـي بالعديـد مـن العناويـن التـي شـكلت مكتبتـي الصغـيرة فيـما بعـد.

السويقة

الرجل البديـن الأشـيب بنظـارة طبيّـة سـميكة يجلـس إلى جـوار صـفّ الكتـب المرتّبـة في زقـاق السـويقة، تسـاومه فـيرضى، وتحدّثـه فيسـمع، وتمازحـه فـيرد مزاحـك بأطيـب منـه، لفتنـي كـما لفـت المـكان انتباهـي في بدايـات الشـباب لوقوعـه في منطقـة غـير آهلـة، واظبـتُ عـلى زيارتـه كلـما سـاقتني حاجـة إلى المدينـة، منـه اقتنيـت أول الكتـب «رحيـل المرافـئ القديمـة» لغـادة السّـمان، أذكـرني وأنـا أحمـل الكتـاب كـما تحمـل الأم طفلهـا، قلّبـت أوراقـه إلى أن بلغـت فهرسـه، ثم سـألت عـن الثمـن، فأجـاب: عـشرة دنانـير.. أعدتـه إلى الأرض برفـق، فقـال بحنـو: أترضيـك ثمانيـة؟ دفعتهـا وأخـذت الكتـاب ومضيـتُ.

كان أول كتـاب أشـتريه، وزادت اكتشـافاتي بعـد ذلـك لأزقـة السـويقة الضيّقـة المسـقوفة، فتعرّفـت إلى باعـة جدد وكتـب أخرى.

أكثر من كتاب

لا تتغير حياة الكائن من كتاب واحد، التراكم هو الأصل في العملية، كل تطور يمسّ الروح والفكر والقلب والذائقة مرهون بالكتاب في مسافة تحوّله ومعنى تجدّده، الكتاب هو امتداد قرائي لا يتوقف، والمعرفة التي تخلق الإنسان هي معرفة متنوعة غزيرة معقّدة، المعرفة المشتقة من القراءات التي لا تُحْصَرُ في كتاب واحد.

حلاوة الدنيا

إن كان في الدنيـا حـلاوة فهـي حـلاوة الكتـب، وهـي تتوفـر بأيـسر الطـرق وبأقـل التكاليـف، هـذه اللـذة العلويـة لا تلزمنـا بأكـثر مـن المحبّـة، المحبّـة التـي تميـل بنـا إلى القـراءة وترفعهـا إلى أعـلى سـقف حاجاتنـا في الحيـاة، القـراءة التـي تبنـي الوعـي، وتخلـق الـذوق، وتـربّي الجـمال، وتـورّث الإرادة، وتقـدّم الخـير، إنهـا القـراءة التـي بنـت إنسـان الغـرب ودفعـت بـه مـن ظـلام جهلـه وفاقتـه إلى نـور معرفتـه واكتفائـه.

حلاوة الدنيا هي مكتبة صغيرة في بيت الإنسان.

الوكر

أسمع عنه، فتنكشف لعينيّ عوالم الإثارة واللذة والخوف..

كنت في نحو العاشرة من عمري، وكانت زيارة رحبة لَجْمَال[1] من الكبائر، فاسم المكان يوحي بالعيب، أما ذكره فيستدعي خيالات لا حصر لها، دلفته ذات صباح رفقة ابن الجيران، كان زقاقه متشعبنا، تُحمَلُ أرضه غير المستوية على درجات حجرية قديمة، بيوته كالمغارات، مسنودة إلى عتمة تخفي تفاصيل الداخل، على أبوابه المتهالكة قبعت نسوة في سفور، لأول مرة في حياتي أرى الأنثى في سحر خلق مرتبط بأداء الجسد، انكشاف تفاصيل لم أرها قبل تلك الساعة، حدّقت بكل الجوع الذي ملكني، تمنيّت برغبة مشبوبة أن تزيد جرعة العري، فتتخطّى الحواجز والحدود التي تقف أمام حاجتي، اختفى الولد الذي يكبرني بسنوات في الداخل كما تبخّر كل ما حولي بلمسة وحيّ، وجدتني وحيدا أقلّب بصري في الأرجاء، موهما بسير وئيد مراوغ كل من يراني بأنّي مجرّد عابر

1. موقع ماخور قسنطينة قبل غلقه سنوات التسعينيات.

لا يلـوي عـلى شيء.. لا حاجـة لي بفرجـة هـي أكـبر مـن عمـري، نعـم لا فرجـة في مثـل هـذه الأماكـن إلا لمـن قصـد المتعـة، وعقـد العـزم، وأخلـص الطلـب، لكـن سـنّي لا تسـمح حتـى بتلصّـص أمارسـه خلسـة في انتظـار صاحبـي..

***

لم تكشـف الأقمشـة الشـفّافة مـا تطلّـع إليـه الخاطـر، وإن كنـت مـلأت عينـي بفاكهـة أجسـاد لذيـذة مشرقـة وضّـاءة تعـثّرت بـأولى تجـاربي، وسـبحت بي بعيـدا في بحـر حـلاوة انكشـف سـحرها لأول مـرة، كان وجيـب قلبـي يطـوف بي في دنيـا الإثـارة، دهشـة الطفـل تفتّحـت كـوردة لامسـها النـدى، كيـف اسـتيقظت كل هـذه الفتنـة دفعـة واحـدة في هديـر ذكّـرني بعجـزي وصغـري؟

كنـت مريضـا وخجـلا وتعبـا، ضغطـت التجربـة بقسـوة عـلى كيـاني، أيـن اختفـى الولـد تـاركا إيّـاي ليـد رغبـة عاصفـة سرعـان مـا تحوّلـت إلى انكسـار موجـع؟.. لا شيء انكشـف مـمّا حلمـت بـه، لكـن العـين العـذراء المتسـوّلة قانعـة بمـا تجـود بـه يـد الكـرم في الوقفـة والجلسـة التـي لم تلتـزم صاحبتهـا بأخـذ حيطتهـا مـن السـتر. كل هـذا البيـاض المتدفّـق، السـائل، المشـتعل الـذي يصعـد ويهبـط بي إلى رغبـة لا تتجـاوز الأمنيـة، أمنيـة أن....

حـين قفلنـا عائديـن إلى البيـت، كان الشـيطان ينشـد أولى مواويلـه في رأسي.

تشكيل

لا يعـرف كيـف بـدأ الأمـر، كـما لا يذكـر منـه غـير مـا يذكـر اليقـظ مـن أضغـاث أحلامـه، كان وعيّـه مشـتّتا وفهمـه قـاصرا، فقـد التبسـت عليـه الـرؤى واضطربـت في ذهنـه الحـوادث، ثمّـة أشـياء تُفهـم وعلـل تفـضي إلى نتائـج، ومنطـق يبنـي مـا يليـه، إلا أنـه وقـف إزاء الحادثـة صامتـا متأمـلا فيـه مـن صمـت خشـوع العابـد وحرقـة شـوق العاشـق، وهكـذا فقـد تـدلّى حبـل مصـيره في صدفـة حملتـه عـلى إدراك مخاتـل لا يـكاد يفهـم منـه شـيئا، لقـد وقـف يسـتلّ بيـد مرتعشـة مـتردّدة وجلـة شـعرة مسـتترة بـين الذكـورة والأنوثـة، سـحبها بخـوف وحـرص، ولامسـها بتوجّـس وحـذر، إنـه يـرى مـا يـراه لأول مـرة حيـث ينكشـفُ تحـت بـصره ويتعـرّى في حضرتـه.

لم يعـرف قبـل اليـوم هـذا الدّبيـب الخافـت، ولا فهـم روح الاختـلاف الـذي يـشرق بـين حيـاة وأخـرى، ولا ذاق ثمـر التجربـة السـاقط مـن شـجرة الوعـيّ المفتـون بـين الحـلاوة والمـرارة، لم تكـن الحيـاة إلاّ هـو بـلا زيـادة ولا نقصـان، نظـر حولـه فألفـى الدنيـا قـد

تهيّـأت لتمسّـه بأعقـد مـا فيهـا، ولتكشـف لـه عـن أنـاه الآخـر في سـحر اختلافـه عنـه، بلـغ قمـة إيمانـه ذاك مـن صوتهـا الرقـراق وقـد فـاض في روحـه كـما يفيـض النهـر في أرض عطـشى، نادتـه فأجـاب، جلسـا إلى طاولـة واحـدة، قالـت بحـماس:

- لقد أشاد الأستاذ برسمك.

طرحت أمامه ورقتها البيضاء فارغة.

ارتبك، صمت، وتأمل...

إنهـا أول مـرة، علقـة البـدء لـشيء لا يعرفـه، المواجهـة غـير محسـوبة العواقـب مـع جنـس يختلـف عنـه في التكويـن والجسـد، الجـرأة في مواجهـة الـتردّد، والصـوت في مواجهـة الصمـت، والبسـمة في مواجهـة التيـه...

وكي تنتشله من هواجسه، سألت:

- هل سترسم لي؟..

مـن دون أن يتلفـظ بحـرف واحـد، أومـأ برأسـه أن نعـم، مـدت يدهـا الصغـيرة، سـحبت قلـم رصـاص وممحـاة، وضعتهـما أمامـه.

- هل تعرف؟

- نعم؟..

انحنـت برأسـها أكـثر حتـى لامسـت جبينـه بخصـلات شـعرها، وأسرّت لـه فيـما يشـبه الهمـس:

- أريد أن تتفوّق رسمتي على كل رسومات الزملاء...

بخجله وارتباكه من سحر المواجهة قال:

- سأحاول...

غابا عـن واقعهـما، استسـلما لقـوة غيبيـة، لم يأبهـا لمـا حولهـما مـن الصّخـب والضجيـج، انـبرى بـكل ثقتـه في موهبتـه يرسـم، وأحاطته باهتـمام كامـل موفـرة لـه كل أسـباب الخلـوة التـي تصنـع جـو إتقانـه، شـعور خافـت في النفـس، دبيـب أرجـل نمـل لـو قـدّر لـه التشـبيه، بـدا كـما حـلاوة العسـل، رفـع عينيـه ليتمـلّى سـحر النظـرة، ودفـق البسـمة، وخصـلات شـعر تعاندهـا في النـزول عـلى وجـه مخمـلي، مـن عمـق ارتباكـه ابتسـم، وسوسـت لـه نفسـه بـأسرار لم يفهمهـا، فسـألها:

- ماذا سأرسم لكِ؟..

- ألم تحدد موضوعك بعد؟

- لا..

- لكنك بدأت..

- مجرّد خط، لا أعرف ما الذي سيكون بعده.

- ارسم أيّ شيء

- كوخ، جبل؟ ...

- ليكن..

انهمـك في الرسـم، امتزجـت حـلاوة شـعوره بخـوف أطلـت بـه عـلى أعمـق أعماقـه، لأول مـرة يقـترب كل هـذا القـرب، ينصهـر كل هـذا الانصهـار، يـذوب خيـط الجهـل الرفيـع بـين جنس وجنس، تسـقط الرهبـة بـين ملامـح الذكـورة والأنوثـة، يـتراءى لـه هـذا الأنـا الجديـد، تـدور حولـه كـما تـدور فراشـة حـول قنديـل، فتذكّـره بهـا وبـه، تعرِّفـه طريقـه إليـه مـن خلالهـا، مـن خـلال هـذا الوجـود الدافـئ، ومـن روح صوتهـا الرقـراق صرخـت:

- وواوو

يفيـض إعجابهـا بمـا يرسـم، فتفيـض روحـه بمـا تلهمـه مـن وحـيّ، يخلـد إلى الصمـت.. عطرهـا في أنفـه، خصـلات شـعرها عـلى جبينـه، يسـكر بخمـرة سـماوية لم يجرّبهـا قبـل اليـوم ولا عـرف إلى نفسـه طريقـا قبـل هـذا اللقـاء.

تقطع حبل نشوته بسؤالها:

- كيف تعلّمتَ الرسم؟..

قال بارتباك:

- لا أعرف..

ليـس في قدرتـه فهـم كل شيء، تأتيـه الأشـياء كـما هـي بـكل خاماتها، فيقبـل عليهـا بشـغف ورغبـة، لا تهمّـه مـن هـذه الأحاسـيس قيمـة المعرفـة، يلقـي بنفسـه التوّاقـة إلى أتـون الاشـتعال مـن غـير سـؤال لم وكيـف وأيـن؟.. يكفيـه مـا هـو فيـه، لذلـك فهـو لا يعـرف، ولا يريـد أن يعـرف، ولا يريـد أن يفسـد صفـاء المتعـة بمـا وراءهـا مـن أسـباب ودوافـع وعلـل، يرسـم بروعـة، يحـسّ بهـا كأنهـا هـو، يكفيـه مثـل هـذا الإحسـاس الـذي يضيـف إلى قلبـه أسرار حـلاوة، ويكشـف لـه في مجاهـل نفسـه أنّ الحيـاة لا تقتـصر عليـه بـل إنّ هنـاك بعـض الكـمال بهـذا النقـص، ومـا وجـه اكتمالهـما غـير وجههـا الـذي يغـدق عليـه فيـض أسرار، ويلهـب داخلـه بهـذه الفتنـة التـي لا تنطفـئ.

وانهمكـت في مراقبتـه بحـذر عاشـقة مستسـلمة للصمـت حيث تتيـح لـه أكـبر قـدر مـن الهـدوء والانسـجام، سرى بينهـما تيـار خفـيّ، لغـة مفرغـة مـن الكلـمات، شـدو طويـل متصـل لا يعـرف الانقطـاع،

ذاب في ما رسمه خياله من التوحد كأنه هي فيه أو هو فيها، لا يعرف ما الذي يعنيه القلب في خفقات سريعة مضطربة عطشى، لا يعرف أيضا حقيقة ما يبثه وجهها وما يصطخب به قلبها، ففي النهاية هو هذا الدوار الغريب الذي استحكم وطال، وهي لا تخرج عن صمتها، لا تريد أن تفسد أسرار الوحي، فتقطع عنه ما هو فيه، وقصارى ما يبدر منها تلك الإشارات الخفيفة الحانية التي يلتقطها بجبينه من خصلات شعرها كلما حانت منها حركة، يسكر جسده الصغير بتلك النشوة الغامرة، ينداح أمام ناظريه عالم الأسرار المخبوءة، تتفجر ينابيع الماء بأعماقه وهي تكشف له عن تلك الحركة الهادرة النائمة وراء تلال من الخوف، تتداخل ألوانه كما تتداخل عواطفه، يرهف سمع جسده إلى أدق ذبذبات جسدها..

ويواصل الرسم ..

العم عبّود

ما كدنا نصحو من سحر غيبوبة الطفولة حتى داهمنا نداء الجدّ، وجدنا أنفسنا نضيف إلى أداء واجبات البيت ثقل العمل عند الغير كأجراء، فعلنا ذلك بدافع التقليد أولا، ثم مارسناه بقوة الإيمان لحاجتنا إلى ما نجنيه من مال لأجل الملبس والدراسة، أما الغريب من أمر تلك الحوادث، فهو عملنا عند من كنا نهاجم غلالهم ونسرق ثمارهم، وهكذا تحوّلنا أو تحوّل بعضنا من لصوص إلى أجراء.

وجدتني أعزق الأرض وأجني البطاطا وأحمل الروث وأنقل جذوع الأشجار، فأدفع مقابل ذلك كل جهدي وقوتي أنا الذي لا يكون فطوري سوى وجبة يسيرة هيّنة لا تزيد عن حبّة طماطم وقطعة كسرة التهمهما وأنا في طريقي إلى جنان عبّود، الرجل السمح البشوش الذي تسبقه ضحكته المجلجلة أينما حلّ، وتسخو يده بعطاء غير محدود يكشف عن شخصية مليئة بحسّ المحبّة والتفكّه، رغم فراغ حياته من الولد بل إنّي أكاد أجزم أنّ

شـخصيته المرحـة تلـك لم تكـن إلا وليـدة ذلـك العقـم الـذي مسّـه، فـما أغـرب وأعجـب فلتـات الحيـاة، وهـي تبعـث الأمـل مـن رحـم اليـأس، وتشـعل نـار الفـرح مـن حطـب الحـزن، وتـصرف النقيـض مـن نقيضـه، مـن ذلـك النقيـض العجيـب المملـوء بالتفكّـه والتسريـة عـن النفـس والضحـك والتنكيـت والاختـلاف إلى الولائـم والأفـراح بدعـوة أو بغـير دعـوة قـام عبّـود، وراح يصطحـبُ معـه بندقيتـه مشـهرا إيّاهـا في الهـواء بطلقـات يهتـزّ لهـا المـكان، وتعلـو الزغاريـد وينكشـف الفاعـل سريعـا.. إنـه عبّـود.

عنـده عملنـا أنـا وصديقـي سـليم ولـد الطواهريـة الـذي توسّـط لي للحصـول عـلى ذلـك العمـل، وقـد أثنـى عـليّ عنـده بعـد أن أظهـر عبّـود اسـتياءه مـن خدمـات فتيـان اسـتقدمهم للعمـل قبلنـا، فلـم يبلـوا حسـنا، لكـن سـليم ضمننـي بقولـه:

- يـا عمّـي عبّـود لا يغرّنـك شـكله - وكان يقصـد هـزالي - فالفتى صديقـي وأعرفـه جيـدا إنـه يحـرثُ مثـل بغل..

ورغـم أنّ صفـة التشـبيه كانـت فاسـدة مثـيرة للحنـق إلا أني رأيـت فيهـا سـاعتها مدحـا رفعنـي إلى سـنام الفخـر، نعـم بإمـكاني تأديـة مـا يُطلـب منـي، أنـا تحـت أمـره وطـوع بنانـه حتـى أبرهـن بالدليـل عـلى صحّـة قـول صاحبـي، ولقـد برهنـت فيـما بعـد بالدهـاء والحيلـة مـرة وببـذل كل طاقتـي مـرة أخـرى، كان عبّـود قـد اصطفانـا لجنـي محصـول البطاطـا وسـألنا سـؤاله المحـدّد:

- تعرفوا تقلعوا البطاطا؟

وقلنا نعم، سلّمني الفأس وقال:

- هذا وادك، اتبعه واضرب بعيدا عن أصل العشّ..

وزيادة في التلقين أكثر، رفع الفأس ذات السنّين الكبيرين في الهواء وهوى بها بكل قوته على مقربة من أصل النبتة، ثم دفع ذراعها إلى الوراء قليلا، فطلعت التربة الطرية تحضن حبّات بطاطا حمراء مختلفة الأحجام، وقال:

- أرني كيف تفعل ذلك..

يا له من تمرين عسير وُضعت فيه، لو خبت فسوف يكون الطرد، لكني تمالكت نفسي ومثل فلاح خبير أحكمت قبضتي على ذراع الفأس، رفعتها في الهواء تماما مثلما فعل، وهويت بها بكل قوتي على مبعدة سنتمترات من رأس النبتة الخضراء، ثم حرّكت الفأس كما فعل، فلقيت حبّات البطاطا تطلّ برؤوسها الحمراء من أكوام التراب، ربّت على كتفي علامة الرضا، فتنفست الصعداء، وانتقل إلى صديقي سليم.

على أنّ ذلك الأمر لم يدم طويلا، فبعد عدّة ضربات جمعت منها ما جمعت من البطاطا داهمني العياء، ورحت أفقد اتزاني وسيطرتي على الوضع، صارت الضربات المحكمة مجرّد محاولات عشوائية تفسد أكثر مما تجني، ووجدتني في ورطة وبالدليل، إذ كان سنّ الفأس يخترق حبّات البطاطا الحمراء الكبيرة فيفسدها شرّ إفساد، ووجب ساعتها أن أخفي دليل خيبتي، فماذا أفعل؟

خلال الأيام التي قضيناها أنا وسليم في ذلك الحقل، اهتديت إلى معرفة أمر مهم، وهو ضعف سمع الفتى، نعم لقد اكتشفت وبالصدفة البحتة أنه ثقيل السمع، كنت أناديه فلا يردّ،

مـرة وأخـرى وثالثـة إلى أن اسـتنجد بطوبـة ألقيهـا عـلى مقربـة منـه، فيلتفـت نحـوي، ومـن هـذه العاهـة نفـذت إلى فكـرتي الشـيطانية في إخفـاء معـالم جريمتـي عـن عـين العـمّ عبّـود، كنـت كلـما أفسـدت حبّـة بطاطـا حملتهـا بهـدوء وألقيتهـا في ثلـم الأرض الـذي تقـدم فيـه سـليم، عـلى مسـافة آمنـة تحرمـه سـماع وقـع الحبّـة، وهكـذا رحـت ألقـي بمـا أفسـده مـن جنـي المحصـول في أثـره حتـى إذا هـلّ العـم عبّـود رأى دليـل الجريمـة بعيـدا عنّـي، وهـو مـا حـدث فعـلا إذ وبعـد أن طلعـت شـمس الصيـف قليـلا جاءنـا يحجـلُ في مشـيته، ليتفقّـد مـا أنجزنـا مـن عمـل، وسريعـا اكتشـف تلـك الحبّـات المعطوبـة بسـنّ الفـأس والملقيـة في أخـدود صاحبـي، فثـار وأزبـد وأرغـى، ولقينـا مـن التقريـع والتعنيـف مـا لقينـا، ولم يفهـم سـليم الأمـر عـلى وجـه الدقـة، وكيـف وُجـدت الحبّـات المعطوبـة في أثـره، فهـو لم يفسـد مـا جنـاه واتبـع الأمـر بدقـة متناهيـة، لكنـه لم يسـتطع أن يجـادل أو يسـتفهم، فطيبـة عبّـود وسـماحته انقلبـت فجـأة إلى شرّ مسـتطير جعلنـا ننكّـس رأسـينا ونعـود صاغريـن إلى عملنـا.

عتبـتُ عـليّ فيـما بعـد، بانقضـاء أوار الفعـل وخلـوتي بنفـسي، بـدا لي أنّ مـا قمـتُ بـه مـن أرذل الأفعـال، أن تعـضّ اليـد التـي أطعمتـك هكـذا بـكل بـرودة دم، فهـي الدنـاءة، كيـف كافـأتُ سـليم عـلى جميلـه بتلـك الخسّـة؟ هـل كنـتُ أدرك أنّ النتيجـة سـوف تـؤول إلى مـا آلـت إليـه؟ التقريـع والتعنيـف واللعنـات والعـمّ عبّـود الـذي عرفتـه بسـماحته وبشاشـته انقلـب في طرفـة عـين إلى ثـور هائـج؟ مـن كان يتصـوّر أنّ كل ذلـك سـيحدثُ، وأنّ صاحبـي سـليم الـذي توسّـط

لأجـل حصـولي عـلى هـذا العمـل سـوف انقلـب عليـه شرّ انقـلاب؟ يـا إلهـي جـرى كل شيء بسرعـة رهيبـة، قمـتُ بمـا قمـتُ بـه مـن بـاب المـزح والسـخرية لم أقصـد الإيـذاء، يشـهد اللـه أنّ الأمـر كان مجـرّد عبـث ولهـو، لكـن النـار اشـتعلت فبـدا الفتـى سـاعتها كقنفـذ أخفـى رأسـه بـين كتفيـه وأشـاح بوجهـه عـن نظـرات عبّـود الـذي راح يزمجـر:

- يا ولدي ما تعرفش قول ما نعرفش..

مـا تخيّلـتُ أبـدا أنّ الوضـع سـيصل إلى ذاك الحـدّ، وإلا مـا كنـت غامـرت مـن الأصـل في قبـول العمـل عنـد هـذا الرجـل، لكـن فيـما بعـد حـين هممنـا بخلـع ثيـاب العمـل لنلبـس ثيابنـا ونغـادر، قـال لي سـليم هامسـا وبسـمة تعلـو محيّـاه:

- عمّي عبّود جنّ..

هـل يعـي فعـلا مـا يقـول؟ كيـف انقلـب هـو أيضـا مـن النقيـض إلى النقيـض، وقبـل أن أنبـس بكلمـة واحـدة راح يـشرح لي مـن أنّـه تعـوّد مثـل هـذا التقريـع وهـو يضحـك في سرّه عـلى ثـورة عبّـود التـي لا تتجـاوز الـصراخ واللطـم واللعـن، لتنطفـئ في همهـمات تخفيـه وراء جـذوع وأغصـان الأشـجار وهـو يغـادر، ورغـم لامبـالاة سـليم وصفـاء نفسـه، فقـد أوجعنـي مـا فعلـتُ.

الزّلة

سـقطة مشـؤومة ألمّـت بي وأنـا ألبّـي نـداء أخـي في اللحـاق بتـتر مسلسـلنا اللبنـاني المفضّـل «لارا والبحـر»، اندفعـتُ كـما يندفـع السـهم مـن القـوس، وصـادف أن كان عـلى أرض الحـوش أثـر صابـون، وكانـت الزلـة التـي دفعـت قدمـي في الهـواء، سـاحبة جسـدي الصغـير بقـوة، معرّضـة رأسي في النهايـة إلى ارتطـام بحافّـة البـاب الحديـدي السـميك، مـا جعلنـي أفقـد وعيـي وأغيـب في شـعور مظلـم لا حيـاة فيـه سـوى صـوت والـدتي وهـي تولـول وتـصرخ بحرقـة: «آآخـلادراي عـلى ولـدي» كان كل مـا سـمعت قبـل الغيـاب، ومـن عجيـب الأمـر أنّ قلبـي قـد رقّ لحالهـا وخـاف عـلى مـا قـد يصيبهـا مـن إصابتـي تلـك، لذلـك فقـد تحاملـتُ عـلى مـا بقـي لي مـن راسـب وعـي وقلـتُ كالمطمـئن:

- أنا هنا.. أنا هنا يمّا..

كان ذلـك آخـر مـا تفوّهـت بـه قبـل أن استسـلم للتـلاشي،

لا أنكـر أني سـمعتُ حـولي بعـض الفـوضى كـما شـعرتُ بقليـل مـن البلـل، لكـن كل ذلـك لم يُعِـدْ لي حقيقـة مـا جـرى.

مـرّ كل شيء بسرعـة سـحرية عجيبـة، تتابـع مناظـر مترابطة لخلـق صـورة كاملـة، الأمـر كـما في كليـشي السـينما، وعليـه فقـد فقدتُ نفـسي أو إن شـئت قـولا أكـثر دقّـة.. فقـدتُ إحسـاسي بنفـسي، ولم أعـثر عـليّ إلاّ وأنـا في آخـر الحلقـة مـن مسلسـل «لارا والبحـر» أسـندتني أمّـي إلى حجرهـا في مواجـه التلفزيـون، وانتظـرتْ أوبتـي إليهـا مـن تلـك الغيبـة الغريبـة، وقـد حـدث مـا آملتـه.. إذ وبعـد مـدة قدّرتُهـا مـن وقـت حلقـة المسلسـل وهـي نحـو نصـف سـاعة بـدأت أحـسّ بشـعاع أبيـض يتناهـى إليّ، ثـم أعقـب ذلـك تداخـل أصـوات بـدت كالهمهمـة، كأنّ العـالم يعـود إليّ بعـد وقـت، التفـتُّ عـن يميني وشـمالي فرأيـتُ إخـوتي بملامـح مغبّشـة لم يفلـح تركيـزي في فـرز وجودهـم، وقد تحلّقـوا لمتابعـة التلفزيـون وأعينهـم تحرسـني، دلّكـت رأسي بمـا بقـي لي مـن جهـد، فشـعرتُ بمـدى البلـل الـذي أصابنـي، كنـتُ كدجاجـة أُغرقـت في حـوض مـاء، وزكـم أنفـي شـذا عطـر غريـب، وشـيئا فشـيئا تمثّلـت لي الأشـياء مـن حـولي، اتضحـت الأصـوات وتجلّـت الصـور ولاح العـالم بـكل مـا فيـه، فتحلّقـوا حـولي سـاعتها بأسـئلتهم العطـشى.. مـاذا حـدث لـك؟ أيـن كنـتَ؟ كيـف وقعـت؟..

***

مـن الغريـب والعجيـب أني لم أزر الطبيـب، ولا كلّفـت أمـي نفسـها عنـاء متابعـة وضـع إصابـة رأسي بمطالبـة والـدي بتصويـر

شـعاعيّ تطمـئن فيـه عـلى هـذه الـرأس التـي عاشـت كل هـذا العمـر، بـل إنّ أبي لم يسـمع -مـن الأصـل- عـن تلـك الحادثـة، فبحلـول المسـاء كنـتُ قـد تعافيـتُ وخرجـت رفقـة إخـوتي للّعـب، ترافقنـي دعـوات أمّــي وبعــض قطــع الشــوكولاتة والبســكويت كتعبــير عــن الحــبّ والتميّـز والتدليـل.

اليـوم أجـدني أسـتحضر أمّـي بخصلتهـا النقيّـة في قـول ذلـك الأعـرابي حـين سـئل عـن أحـبّ ولـده إلى قلبـه، فقـال: صغيرهـم حتـى يكـبر ومريضهـم حتـى يشـفى وغائبهـم حتـى يعـود، لقـد كنـتُ مريض أمّـي الأقـرب إلى قلبهـا في تلـك الأمسـية المنصرمـة مـع مـا انـصرم مـن الحـوادث والذكريـات التـي لم يبـق منهـا غـير هـذه الأصـداء..

الفهرس

الأرض الأولى..... 7
خوفي وأفراحهم..... 11
نصف الحكاية..... 12
حرف من الماضي..... 16
المزارة..... 21
الفخّ..... 24
الخروج من الجنّة..... 27
النسيان..... 29
الكانكي..... 32
حديث الخوف..... 34
عطر البدايات..... 36
في انتظاره..... 38
المقبرة..... 41
صالح الدرويش..... 45
البردعة..... 50
الحاوي..... 53
حديث النار..... 56
حديث الحبّ..... 59
الكتاب..... 61
السبّورة..... 64
السقوط..... 66
الإيمان..... 70
حديث الوداع..... 75

حديث المـوت.....77
هــو.....79
أرض القـراءة.....83
السرقــات.....85
أرض القـراءة.....83
السـويقة.....87
أكثر مـن كتـاب.....88
حلاوة الدنيـا.....89
الوكر 90
تشـكيل.....92
العـمّ عبّـود.....97
الزّلة.....102